عصر التابعين
(٢)

مشاهير القضاة

الزهري

شريح القاضي

محمد بن سيرين

عطاء بن رباح

رجاء بن حيوة

الشعبي

تأليف
عبد المنعم عبد الراضي الهاشمي

دار ابن كثير
دمشق - بيروت


مشاهير القضاة

الطّبْعَة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوزِيع

دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - دمشق - ص . ب ٣١١

بيروت - ص . ب ٦٣١٨ / ١١٣

بسم الله الرحمٰن الرحيم

مقدمـة

الحمد للّه خالقُ الخَلْق، والقاضي بالحقّ، وربُّ كلّ شيء، وفاصل الأمور، العالم بما يكون، مُحصِّل ما في الصدور، لا شيء مثله، العليُّ العظيم، لا رادَّ لقضـائه ـ سبحانه ـ بيده مصائر الناس، وله عواقب الأمر.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، عبد الله ورسوله، سيد الأنبياء، وإمام القضاة والمتَّقين، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً . .

وبعد: فإن الله عز وجل جعل الحُكْم والقضاء من أرفع الأمور، فقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُـم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال عزَّ من قائل مخاطباً النبي محمداً ﷺ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أهمية القضاء العادل، وضرورة تنفيذ الحق في الأحكام، ورغّب في ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام:

«إنَّ المقسطين عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرَّحمٰن، وكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا». رواه مسلم وأحمد والترمذي.

وقد جمعتُ في كتابي هذا أشهر القضاة، وأعلمهم، وأجلّهم مكانة، إذ كانوا أئمة الهدى والعدل، والصلاح والفَهْم، وهذا ما دفعني لعرض سِيَرهم واضحةً مُغْنِيةً، فيها الفائدة والمتعة.

وقد آثرت أن أعرض لهؤلاء القضاة، في خصالهم وصفاتهم الحميدة، من النزاهة وقول الحق، وسعة العلم، واتباع السُّنة، والاقتداء بأحكام الشرع، فكانوا مفخرة الأمة، ومبعث اعتزاز الناس كلهم.

وقد سِرْتُ مع كل قاضٍ من ولادته إلى وفاته، مستعرضاً حياته، واقفاً عند الأمور الأساسية التي تتعلق بشخصيته، محاولاً رسم الإطار العام، ووضع بطاقة تعريف لهؤلاء الأعلام، مما يوسع نافذة الإعجاب بعمالقة القضاء في الإسلام.

وهؤلاء القضاة الأعلام هم:

ابن شهاب الزهري، وشريح، ومحمد بن سيرين، وعطاء

ابن أبي رباح، ورجاء بن حيوة، وعامر بن شراحيل الشعبي.

هذا، وأرجو من الله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به المسلمين إنه على كل شيء قدير.

اللهم تقبَّل مِنَّا إنك أنت السميع العليم، والحمد للّه رب العالمين.

المؤلف

عبد المنعم الهاشمي



الزّهـــرِيّ



ـ ١ ـ

ابن شهاب الزهري

من أقوال ابن شهاب:

* ما عُبدَ الله بشيء أفضل من العلم.
* كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحبُّ إلينا من علمه.

كانت قضيته رحمه الله هي العلم والعلم فقط، تعلمه، فتحدث عنه، وأجهد نفسه في سبيل طلبه ممتثلاً لسنة الرسول ﷺ في أنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأنّ خيركم من تعلم القرآن وعلَّمَه.

كان يحدث كثيراً عن أدب المتعلم فيقول: «حضور المجلس بلا نسخة ذلٌ» وهنا يقصد مجلس العلم.

وكان رحمه الله يقول:

«العلم وادٍ، فإذا هبطت وادياً، فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه، فإنك لا تقطع حتى يقطع بك».

هكذا هبط ابن شهاب الزهري وادياً شاسعاً، ليس له آخر فتروَّى وتريَّث ولم يقطعه كله وإنما قطع منه دُرًّا نفيساً، وثروة تركها على وجه الدنيا ما زالت تنفعنا وتنفع كل الناس.

إن للعلم غوائل:
فمن غوائله: أن يُترك العالم حتى يذهب بعلمه.
ومن غوائله النسيان.
ومن غوائله الكذب، وهو أشد غوائله.

وكفى، فليس عدلاً أن يكون الإطار حديثنا عن ابن شهاب، وإنما نبحر في سيرته تفصيلاً، ونتعلم من تابعي ثقة، كان من الذين اتبعوا المهاجرين والأنصار بإحسان إلى يوم الدين.

ـ ٢ ـ
من هو الزهري؟

هو الإمام الحافظ الفقيه، المؤرخ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام العلم القرشي الزهري، الشهير بـ «ابن شهاب الزهري»، وهو قرشي. من بني زهرة بن كُلاب، أخي زهرة بن كلاب جد رسول الله ﷺ وهم أخوال رسول الله ﷺ، لأن أم الرسول ﷺ هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

كان جده عبدالله الأصغر بن شهاب قد شهد أُحداً مع المشركين، وكان أحد المتآمرين على قتل رسول الله ﷺ، لكنه أسلم فيما بعد، وتوفي في مكة في أيام الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، بينما كان أخوه واسمه عبدالله

وكان اسمه عبد الجان وغيَّره رسول الله ﷺ إلى عبدالله وهو جد ابن شهاب أيضاً[1].

كان والده مسلم بن عبيدالله أحد المناصرين لعبدالله بن الزبير والمدافعين عنه والمبايعين له بالخلافة ضد بني أُمية.

وُلِدَ الزهري في سنة ٥٠ هجرية وعُمِّرَ قرابة السبعين عاماً، عاش بداية حياته في مدينة رسول الله ﷺ حيث نشأ تحت سقفها ومن ظلال نخيلها ثم يَفعَ واشتدّ عوده فانطلق متنقلاً بين الشام والحجاز اعتباراً من العام الثاني والثمانين للهجرة، ويعتبر ابن شهاب الزهري من كبار صغار التابعين فهو من كبارهم لعلمه وكثرة حديثه وروايته ويعتبر من صغارهم لرؤيته ولقائه القليل مع الصحابة الذين لا يزيد عددهم عن عشرة أفراد، روى عن عدد منهم وقد ذُكِرَ أن أكثر الصحابة الذين لقيهم ابن شهاب وروى عنهم هو الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر الأنصاري خادم رسول الله ﷺ.

فقد روى عنه أحاديث كثيرة منتشرة في كتب الحديث والسنة المعروفة عند أهل السنة.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ /٩٢، ٩٣، والإصابة لابن حجر جـ ٢ ص ٣٢٥ رقم الترجمة ٤٧٥٣.

ـ ٣ ـ

شيوخه

كان أول من تعلم منه ابن شهاب الزهري في أول عهده بالعلم هو الصحابي عبدالله بن ثعلبة بـن صغير، وهو من صغار الصحابة، وقد تعلَّم منه الزهري الشعر والنسب خاصة نسب قومه ـ بني زهرة ـ.

ثم تحوّل ابن شهاب إلى دراسة القرآن الكريم والحديث والفقه.

فدرس على فقهاء المدينة السبعة، وكانوا أكثر الناس تأثيراً فيه وفي علمه وفقهه وهم:

* سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي.
* عروة بن الزبير بن العوام أبو عبدالله الأسدي القرشي.
* أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي.
* عبيـدالله بن عبدالله بن عتبـة بن مسعـود أبـو عبـدالله الهذلي.
* خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري.
* سليمان بن يسار.
* القاسم بن محمد بن أبي بكر[١].

---

(١) من فقهاء المدينة، وللمؤلِّف بحث تحت الطبع عن فقهاء المدينة.

وقد لازم الزهري معظم هؤلاء الفقهاء الذين اشتهر عنهم العلم والفقه والفتوى في المدينة اعتباراً من النصف الثاني للقـرن الأول الهجري، وأثْـروا الأنصار بفقههم، وأَجَلَّهم الصحابة وأصحاب شأن المسلمين من الخلفاء وأمراء المؤمنين مع بدء العصر الأموي.

ـ ٤ ـ
نشأته

كان من أهل العزائم، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، فهو صاحب همَّة عالية، ودأب متواصل متصل لا يكلّ ولا يملّ، ومما يبعث على الإعجاب بهذا الفتى الفقيه أنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة، وكـان يدور على حلقـات العلم والدرس يبحث عن مجلس علم وفي يده الألواح والصحف ليسجل كل ما يسمعه، وها هو ابن أبي الزناد يروي عن أبيه أنه قال: «كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب الزهري يكتب كلَّ ما سمـع، فلما احتيـج له، علمت أنـه أعلم الناس»[١].

وكان ابن شهاب حريصاً كل الحرص على حفظ كل ما يسمعه وقد وهبه الله ملكة عظيمة في الحفظ والإتقان حتى إنَّه قال عن نفسه: «ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته»[٢] وكان

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ٣٣ أخبار الزهري رقم ١٦٠.
(٢) المصدر السابق.

كلما طاف بالألواح والصحف يضحك أقرانه مما حمل بين يديه منها.

وقد مدحه الشعراء لعلمه وفضله حتى قال فيه الشاعر: [من الكامل]

ذَرْ ذا وأَثْنِ على الكريم محمدٍ
واذكر فواضله على الأصحابِ
وإذا يقال مَنِ الجوادُ بماله؟
قيل: الجواد محمد بن شهابِ
أهلُ المدائنِ يعرفون مكانه
وربيعُ ناديه على الأعرابِ

لقد كان من شدة استيعابه وسرعته لا يستفهم عالماً قط. وقد قال عنه الإمام مالك رحمه الله: حدَّثَ الزهري يوماً بحديث، فلما قام قمت فأخذت بعنان دابته، فاستفهمته، فقال: أتستفهمني يا مالك؟! ما استفهمتُ عالماً قط ولا رددت شيئاً على عالم قط.. وحتى لا نترك هذا الموقف دون أن نستوضح موقف الزهري فيه والذي يمكن أن يؤخذ على أنه لا يترك العنان لعقله ورأيه عندما هرم وبلغ به العمر أرذله كان يخصّ مالكاً وصاحباً له بالحديث دون تلاميذه فلما سئل عن ذلك قال:

إن مالكاً وصاحبه عبد العزيز يسمع الرواية ويقلبها على

جوانبها ويمحص فإن ثبتت صحتها أخذ بها وإن لم يكن تركها، وأنا رجل هرم أخاف الخطأ . .

لهذا السبب قال: أتستفهمني؟ لمالك، واستغرب ليقينه بضرورة محص الرواية ومقابلتها حتى تكون ثقة مأمونةً.

كان يسعى إلى العلماء واحداً تلو الآخر ويأخذ منه وليس لدينا أفضل من حديثه عن نفسه في هذا المجال، يقول ابن شهاب:

نشأت وأنا غلام، لا مال لي، ولا أنا من ديوان، وكنت أتعلم نسب قومي من عبدالله بن ثعلبة بن صُعير، وكان عالماً بذلك وهو ابن أخت قومي وحليفهم، فأتاه رجل، فسأله عن مسألة في الطّلاق فعيَّ بها وأشار له إلى سعيد بن المسيب (أحد الفقهاء السبعة كما ذكرنا) فقلت في نفسي: ألا أراني مع هذا الرجل المسنِّ يذكر أنَّ رسول الله ﷺ، مسح رأسه، ولا يدري ما هذا؟! فانطلقت مع السائل إلى سعيد بن المسيب، وتركت ابن ثعلبة، وجالست عروة بن الزبير، وعبيدالله، وأبا بكر بن عبد الرحمن حتى فَقُهْتُ»[1].

كان رحمه الله يدور على البيوت، بيوت الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من المهاجرين والأنصار فيطرق الأبواب

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٣٠، وجاء في رواية أخرى أن صاحب هذه القصة مع مالك هو ربيعة الرأي.

ويسائل أبناءهم عما يريد أن يتعلمه ويسجل ذلك كله في صحفه وألواحه، حديثاً كان أم سنة من سنن رسول الله ﷺ أم رأياً لصحابي جليل، ولم يضعف من عزيمته ضحك أقرانه وسخريتهم منه لحالته تلك، وقبل أن ينتهي القرن الهجري الأول كان ابن شهاب «أعلم الناس بسنة سلفه» وقد قيل «لولاه لضاعت أشياء كثيرة من السنن».

كان رحمه الله ثقة كثير الحديث والعلم والرواية، فقيهاً، جامعاً. وقد سمع من سهل بن سعد وأنس بن مالك رضوان الله عليهم. وقد روى عن عبدالله بن عمر ثلاثة أحاديث.

ومات عبدالله بن عمر بمكة، وقد بلغ ابن شهاب ست عشرة سنة من عمره ولحبه للعلم كان يُجِلُّ شيوخه وأساتذته، فها هو يتحدث عن عروة بن الزبير أحد شيوخه وأحد فقهاء المدينة السبعة فيقول:

«إني كنت لآتي باب عروة، فأجلس، ثم أنصرف، ولا أدخل ولو شئت أن أدخل، لدخلت إعظاماً له».

وقد جلس إلى سعيد بن المسيب ثماني سنوات كاملة يسمع ويتعلم منه، وفاء لنصيحة نصحه بها عالم[1] عندما قال له:

تريد هذا يا بن شهاب؟ يقصد العلم.
قال الزهري: نعم.

---

(١) ثعلبة بن مالك ـ تاريخ دمشق ـ لابن عساكر.

قال: عليك بسعيد بن المسيب. فجالسه أكثر من ثماني سنوات.

وكان يخدم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة أيضاً لتلقيه العلم عنه وهاهو يقول: كنت أخدم عبيد الله بن عبد الله، حتى كنت أستقي له الماء المالح، وإنه كان ليسأل الجارية: من بالباب.

فتقول له: غلامك الأعمش. تظن أني غلام له، «وكان رجلاً قصير القامة له شعيرات قليلة في لحيته، أحمر الرأس واللحية، وفي حمرتها انكفاء قليل»(١).

وقد أخذ ابن شهاب على عاتقه توثيق الرواية وتنقيتها من أي شوائب تنسب لصدقها، وقد عبر عن هذا المفهوم ذاته عندما قال: «لولا أحاديث سالت من المشرق، ننكرها، ولا نعرفها، ما كتبت حديثاً، ولا أذنت في كتابتِهِ»(٢).

ـ ٥ ـ
طلبه للعلم

وعندما بلغ الزهري الثلاثين من عمره أو نحوها ارتحل إلى دمشق عاصمة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت وكان خليفة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

المسلمين آنئـذٍ هو عبد الملك بن مروان، وكان من حسن حظ الزهري أن عبد الملك كانت تشغله مسألة فقهية، يريد فيها حلاً، على الرغم مما كان فيه من مشاغل الحروب، وهذه المسألة تتعلق بأمهات الأولاد والميراث.

وكان الزهري قد سمع فيها رأياً ولكنه لا يتذكره جيداً، وفي الوقت نفسه كان قبيصة بن ذؤيـب أحد محدثي وعلماء الشام المشهورين لم يستطع أن يفصل فيها حلاً قاطعاً. وعن طريق محدِّث الشام هذا قبيصة بن ذؤيب اتصل الزهري بعبد الملك وحكى له الرأي في تلك المسألة، وامتحن علمه، وأعجب به، فقضى عنه ديونه وضمَّه إلى صحابته، وأمر له براتب يكفيه مؤونته وعيشه، ثم أمره بالرجوع إلى المـدينة والاستزادة من العلم والتفرغ له.

ونترك الزهري يحدث عما حدث له في رحلة الشام هذه التي ذكرنا موجزها فيقـول: [١] «رحـلت إلى الشام، فدخلت مسجد دمشق في السحر، وأممت حلقة تجاه المقصورة عظيمة، فجلست فيها، فنسبني القوم (أي سألوه عن اسمه) فقلت: رجل من قريش، قالوا: هل لك علم بالحكم في أمهات الأولاد؟ فأخبرتُهم بقـول عمر بن الخـطاب. فقالـوا: هذا مجلس قُبيصة بن ذؤيب وهو حاميك، وقد سأله أمير المؤمنين وقد سألنا فلم يجد عندنا في ذلك علماً، فجاء قبيصة فأخبروه الخبر،

---

(١) الرواية في سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ٣٣٠ - ٣٣١.

فنسبني فانتسبت، وسألني عن سعيد بن المسيب ونظرائه، فأخبرته قال: فقال: أنا أُدْخِلُكَ على أمير المؤمنين، فَصَلَّى الصّبح، ثم انصرف فتبعتُه، فدخل على عبد الملك، وجلست على الباب ساعة، حتى ارتفعت الشمس، ثم خرج الآذِنُ، فقال: أين هذا المديني القرشي؟ قلت: ها أنا ذا، فدخلت معه على أمير المؤمنين، فأجد بين يديه المصحف قد أطبقه، وأُمر به فرُفع، وليس عنده غير قبيصة جالساً، فسلمت عليه بالخلافة، فقال: من أنت؟ قلت: محمد بن مسلم (وساق آباءه إلى زُهرة) فقال: أوَه قومٌ لفارون من الفتن. (وكان جده موالياً لعبد الله بن الزبير ضد بني أمية).

ثم قال: ما عندك في أمهات الأولاد؟.

فأخبرته عن سعيد بن المسيب، فقال: وكيف حاله؟.

ثم حدثته الحديث عن أمهات الأولاد عن عُمر. فالتفتَ إلى قبيصة فقال: هذا يكتب به إلى الأفاق. فقلت: لا أجده أخلى منه الساعة، ولعلي لا أدخل بعدها.

فقلت: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يَصلَ رحمي، وأن يفرض لي فعل.

وخرج ابن شهاب عند أمير المؤمنين وصحب قبيصة الذي أغدق عليه من ماله الخاص وعاد إلى أمير المؤمنين، فجعل يسأله عن أنساب قريش، فعرف علمه ثم قال له: قد فرضت لك فرائض أهل بيتك، ثم أمر قبيصة أن يكتب ذلك في الديوان.

ثم قال له ناصحاً: «أين أنت من الأنصار، فإنك واجد عندهم علماً، أين أنت من ابن سيدهم خارجة بن زيد، وسمى رجالاً منهم».

عاد الزهري إلى المدينة، وعاد الاتصال بأهل العلم، ونشط من جديد ليستكمل علمه ودراسته، فأخذ يجمع الحديث ويدوّن ويحفظ حتى جمع من العلم مبلغاً لم يصل إليه أحد قبله، فضم علماء الفقهاء السبعة وبلغ منزلة علمية عالية، حتى إنه عندما كان يزور المدينة يتوقف محدِّثوها عن التحديث ويمتنع فقهاؤها عن الإفتاء إجلالاً وتقديراً له، وكان بعضهم يسعى إلى مجالسه يسمع منه رغم أنه عالم كبير مثل عمرو بن دينار الذي عاصر الصحابة قبل ابن شهاب وتعلم منهم، ولقد درس عن الزهري وتخرج تلاميذ كثيرون يصعب حصرهم أشهرهم: الإمام مالك بن أنس إمام المدينة والنعمان بن ثابت، والأوزاعي، والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وغيرهم من مشاهير العلماء والفقهاء.

— ٦ —

الإنسان

كان ابن شهاب شخصية مملوءة بإنسانية ليس لها حدود في البذل والعطاء وصداقة الخلان والأصحاب، فكان ينفق على السائلين بلا حدود حتى يصل به الأمر إلى مدِّ يده ليستدين

فيقضي حاجة الرجل، وها هو تلميذه الليث بن سعد رضوان الله عليه يقول:

«كان ابن شهاب مِن أسخى مَنْ رأيت، كان يعطي كل من جاء وسأله، حتى إذا لم يبق معه شيء يستلف من عبيده، فيقول لأحدهم:

يا فلان، أسلفني كما تعرف، وأُضعف لك كما تعلم فيسلفونه، ولا يرى بذلك بأساً»[١].

ويضيف تلميذه الليث بن سعد فقيه مصر رضوان الله عليه: وربما جاءه السائل فلا يجد ما يعطيه، فيتغير عند ذلك وجهُه ويقول للسائل:

«أبشر، فسوف يأتي الله بخير».

فقضى الله سبحانه عز وجل لابن شهاب على قدر صبره واحتماله، إما رجلاً يغدق عليه ما يكفي كل قصَّاده ومريدي إحسانه إليهم، وإما رجلاً يبيعه بضائع وما لزم ذوي الحاجة من طعام ولباس وغيرها، فينظره إلى مَيْسَرةٍ فيما بعد.

كان رحمه الله يطعم الطعام على حبه، لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً وإنما يبتغي وجه الله سبحانه وتعالى، ونترك الليث يشاركنا في وضع صورة ابن شهاب الزهري الإنسان فيقول: وكان يطعم الناس بالثريد في الخصب، وغيره،

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر.

ويسقيهم العسل، وكان ابن شهاب يسمر على العسل، كما يسمر أصحاب الشراب على شرابهم ويقول: اسقونا وحدِّثونا.

وإذا رأى أحداً من أصحابه قد فاجأه النوم في مجلسه قال له:

ما أنت من سُمَّار قريش الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم ﴿سامراً تهجرون﴾[1].

كان رجلاً يعتني بنفسه فكانت له قلنسوة بيضاء معصفرة وعليه ملحفة معصفرة من أطايب النسيج وتحته وسادة لها نسيج طيب ليِّن.

كان دائم الخشية على العلم، فيه خوف عليه، وحب شديد له كعاطفة المحبين فقد سمعه الليث بن سعد يرثي العلم بلسانه ويقول:

«يذهب العلم، وكثير ممن كان يعمل به».

ولما سمعه الليث يقول قوله هذا أراد أن يخفِّف عنه فقال له مباسطاً ملاطفاً:

لو وَضَعْتَ من علمك عند من ترجو أن يكون خلفاً من الناس بعدك؟ فأجابه الزهري قائلاً:

والله ما نشر أحدٌ العلم نشري، ولا صبر عليه صبري، ولقد

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٧.

كنا نجلس إلى ابن المسيب[1] فما يستطيع أحد منا أن يسأله عن شيء إلا أن يبتدىء الحديث أن يأتي رجلاً فيسأله عن أمر قد نزل به، قد طالت مجالستنا إياه حتى ما كنا نسمع منه إلا الجواب.

هكذا كانت إنسانية ابن شهاب العالم والمؤمن المتصدق الزاهد في متاع الدنيا كله الراغب في علمه وعلم دينه ودونما ذلك فليس من اهتمامه بشيء فظل على شمائِله هذه وإنسانيته إلى أن أصبح صاحب مجلس علم عظيم، ومحدثاً من ذوي الشأن الذي يهرع إلى مجلسه العلماء لا العامة فقط. وكان لكل مجلس علم أسلوب ينفرد به، وهذا ما نرغب أن نراه عن قرب في مجلس علم ابن شهاب الزهري.

ـ ٧ ـ

العالم المحدث

وفي عهد بني أُمية جلس الزهري محدثاً. إذا دخل المدينة توقف علماؤها وفقهاؤها عن التحديث ومجالس العلم إجلالاً له، بل وتوجهوا إلى مجلسه وجلسوا للاستماع إليه وقد قال أحد تلاميذه[2] عن تحديثه ومجلس علمه:

«ولو سمعت من ابن شهاب، يحدث في الترغيب، قلت:

---

(١) سعيد بن المسيب أحد فقهاء المدينة السبعة.

(٢) الليث بن سعد ـ تاريخ ابن عساكر. ترجمة الزهري.

لا يحسن إلا هذا فإن حدَّث عن الأنبياء وأهل الكتاب؛ قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب؛ قلت: لا يحسن إلا هذا.

وإن حدِّث عن القرآن والسنة، ألَمَّ بحديثه».

ثم ينهي حديثه بدعاء يقول فيه:

«اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة».

وقد كان متريثاً من جلوسه للعلم والتحديث وتعليم الناس، فعندما نصحه أحد أصدقائه[1] قائلاً: لو أنك سكنت المدينة، ورحت إلى مسجد رسول الله ﷺ وقبره، تعلم الناس منك.

فأجابه الزهري قـائلاً: إنَّـه لا ينبغي أن أفعل حتى أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة.

وقد كان للزهد في الدنيا مفهوم خاص عند ابن شهاب الزهري يلفظ المظهر فيه بينما يقرُّ جوهره وهو الإمساك عن الشهوات والسيطرة عليها حيث قال:

«ليس الزهد بتقشف الشعر، وقلَّة الرِّبح، وخشونة الملبس والمطعم ولكن الزهد ظلت[2] النفس عن مخـبوء الشهوات».

---

(١) ربيعة الرأي أحد الفقهاء في عصر التابعين.

(٢) ظلت النفس: أي كبح جماحها.

من خلال هذا المنهج راح الزهري يحدِّث الناس ويعلمهم من علمه الكثير فكان جامعاً للعلم فهو محدث وراوية ومفسر، وعالم تاريخ وله دراية كبيرة بالنسب وعلمه.

ـ ٨ ـ
سخاؤه وكرمه

كانت هذه الفضيلة من أكثر الفضائل التي تحلَّى بها ابن شهاب الزهري حتى سببت له كثيراً من المتاعب. وقد قال الشاعر في سخائه وكـرمه:

لــه سحـائبُ جــود في أنــامله
أمطارُها الفِضَّةُ البيضاءُ والـذَّهَبُ
يقولُ في العسرِ: إن أيْسَرْتُ ثانيةً
أقْصَرتُ عن بعض ما أُعطِي وما أَهَبُ
حتى إذا عـادت أيامُ اليســار لـه
رأيتَ أمـوالَـه في النـــاس تُنتهبُ

وقد عاتبه ذات مرة رجاء بن حيوة فقيه الشام استدانته من جراء كرمه وسخائه على الناس فقال لـه: لا تـأمن أن يمسك عنك هؤلاء القوم[١]، فتكون قد حملت على أمانتك.

فوعده ابن شهاب أن يمتنع عن ذلك. وفي ذات يوم مر

---

(١) يقصد حكام بني أمية الذين كانوا يقضون دينه.

بداره رجاء بن حيوة فوجده قد وضع الطعام للناس، ونصب موائد العسل.

فقال رجاء معاتباً: هذا الذي اتفقنا عليه؟.

فقال الزهري باسماً: انزل، فإن السخي لا تؤدبه التجارب!!.

ومن شدة كرمه وتمكن السخاء من نفسه كان إذا أبى أحدٌ من أصحاب الحديث أن يأكل طعامه امتنع عن تحديثه عشرة أيام، وكان كلما سمع نقداً من الناس على هذه الخصلة فيه قال: إن من ابتغى الخير، اتقى الشر.

ومن أفضل ما نصح الزهري به مريديه وأصحابه هو المروءة وما تحمله من جود وكرم فقال: «ما طلب الناس شيئاً خيراً من المروءة، ومن المروءة ترك صحبة من لا خير فيه، ولا يستفاد منه عقل، فتركُهُ خيرٌ من كلامه»[1].

وقد كانت لابن شهاب مكانة كبيرة في أوساط بني أمية فأجزلوا له العطاء ولكن علمه وحديثه أخذ جانب التفوق والبراعة فلم يداهن كما رماه الناس بذلك بهتاناً.

---

(١) تاريخ ابن عساكر.

ـ ٩ ـ

آراء الفقهاء فيه

قال الإمام مالك عن أستاذه وشيخه ابن شهاب الزهري: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذونه، لقد أدركت بالمسجد (يقصد مسجد رسول الله في المدينة) سبعين ممن يقول: قال فلان قال رسول الله، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً فما أخذت منهم شيئاً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ويقدم علينا الزهري وهو شاب فنزدحم على بابه[1] أي يكثر الناس حوله ويتزاحمون لحبهم في طلب العلم منه.

وقال الليث بن سعد فقيه مصر إن أحد أصحابه قال له: كنت مع ابن شهاب في سفر فصام يوم عاشوراء، فقيل له: لم تصوم وأنت تفطر في رمضان في السفر؟.

فقال الزهري: إن رمضان له عدة من أيام أُخر، وإن عاشوراء يفوت.

وها هو ربيعة الرأي جالس في المدينة يحدث ويفقه تلاميذه وإذا بمن يقول له: إن ابن شهاب الزهري وصل إلى المدينة قادماً من الشام، فقام إليه ربيعة الرأي وأخذه بيده مرحِّباً، ودخلا إلى بيت الديوان وهو ضيافة المدينة فما خرج إلى العصر،

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٤٣.

وكان مجلس علم وحوار ثريّ بينهما وخرج كل منهما يقول في الآخر رأياً.

قال ربيعة الـرأي: مـا ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب.

وقال ابن شهاب لربيعة الرأي: مـا ظـننت أن بالمدينة مثلك..

يرحمهما الله، ألا يسمع علماؤنا هذه الكلمات والاطراءات التي تثلج الصدور لا تُوغرها كما يحدث في أيامنا هذه، فكل منهم يثني على علم صاحبه ويجلّه، إنهم التابعون بإحسان إلى يوم الدين.

وهذا الشيخ ابن شهاب الزهري في مجلسه وبين تلاميذه الأفاضل يضفي طابع المرح عـلى مجـلسه فيسأله سائل منهم عن حديث فيلوم تلاميذه قائلاً «تركتم العلم حتى صرتم كالشنان (وهي القرب المهترئة) قد تَوَهَّت، طلبتموه، والله لا جئتم بخير أبداً»(١).

فضحك تلاميذه وسارت من المجلس فكاهة لشدة عتب شيخهم على قلة اجتهادهم ومثابرتهم. ثم أراد أن يضفي على تلاميذه شيئاً من الإثراء العلمي خوفاً من الملل والانصراف عن الحديث فقال لهم:

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٤٤.

هاتوا من أشعاركم وأحاديثكم، فإن الأُذن بحاجَةٍ، وإن للنفس حمضة.

وقد يذكر تاريخ الفقه الإسلامي بالفخر الزهري وما نبغ على يديه من تلاميذ كانوا أئمة الفقه من القرن الثاني الهجري، وتولوا نشر العلم وتصدروا للإفتاء وكوّنوا مدارس فقهية ومن أشهر هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا فقهاء أمة المسلمين فيما بعد: مالك بن أنس، والنعمان بن ثابت، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، والليث بن سعد وعبد الملك بن جريح، وسفيان بن عيينة.

ـ ١٠ ـ
وفاته

وبعد حياة طويلة، مليئة بالعلم والسنة جاوزت السبعين عاماً قضاها الزهري رحمه الله في طلب العلم وتدوينه وتعليمه ونشره في كل مكان وطئته قدماه توفي رحمه الله في قرية تسمى شغب وهي على الحدود الفاصلة بين الشام وفلسطين، وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليدعو له من يمرُّ به، رحم الله الزهري وأسكنه فسيح جنانه. وكانت وفاته في العام الرابع والعشرين من القرن الثاني الهجري.



شُرَيح القاضي



- ١ -

شريح القاضي

كتب عمر بن الخطاب لشريح القاضي حين ولّاه قضاء الكوفة:

«إذا أتاك أَمرٌ في كتاب الله، فاقضِ به، فإن لم يكن في كتاب الله وكان من سنة رسول الله ﷺ فاقضِ به، فإن لم يكن فيهما، فاقضِ بما قضى به أَئمَّةُ الهُدَىٰ، فإن لم يكن فأنت بالخيار، إن شئت تجتهد رأيك، وإن شئت تُؤامِرني، ولا أرى مؤامرتك إياي إلَّا أَسلم لك»[١].

على مدى ستين عاماً ظلَّ شريح يقضي في أهل الكوفة وعامة المسلمين ممن يريدون الوصول إليه وتعاقبَ على وجوده في منصبه هذا كُلٌّ من خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي، ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين، وظل على هذا الحال حتى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي جاء إلى ولاية العراق وقد بلغ شريح السابعة بعد المائة من حياتهِ الحافلة بالقضاء بين المسلمين.. فأراد أن يستعفي لهرمه وشيخوخته ومآرب أخرى..

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ١٠١.

أليس هذا الامتداد الطويل يجعلنا نقترب قليلاً من روضة القاضي شريح فنحمل الزهرة تلو الزهرة حتى نحمل الباقة ونعتزَّ بريح فقهها الطيب وقد ندفع بهذه الباقة هدية للقارىء ربما للظلال الكثيرة التي تتوارى خلفها سير التـابعين، ليس لسبب فكري أو علمي أو مآخذ لا قدَّرَ الله ولكن لرغبتنا في أن تسطع سيرة شريح القاضي وصحبه وتكون في متناول كل يد وتحت كل عين أحبت كتاب الله وسنة رسوله، والآن لنقترب قليلاً من أول زهرة من السيرة.

ـ ٢ ـ
بطاقة تعريف

هو الفقيه أبو أُمية، شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكِنْدي، قاضي الكوفة، أسلم في حياة النبي ﷺ وهو باليمن، وانتقل من اليمن إلى مدينة رسول الله ﷺ في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد قال بعضهم: لو أن شريحاً همَّ بعض الوقت لاستطاع أن يلحق بالرسول ﷺ.

حدَّث شريح رضي الله عنه، عن خليفة رسول الله عمر الفاروق رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب وقد روى عنه الكثير منـهم: الشعبي، وإبراهيم النخعي، وابن سيـرين، وغيرهم.

قال بعض الرواة والمؤرخون إنه كان من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن.

وقد خرج شريح القاضي من اليمن، لأن أُمه تزوجت بعد أبيه، فاستحيا من ذلك فخرج إلى الحجاز.

ولما سُئل ممن أنت؟ قال: «ممن أنعم الله عليه بالإسلام وعدادي في كِنْدة»[1].

كان شاعراً عظيماً يقول الشعر فيما يُرضي الله ورسوله.

قال عنه ابن سيرين: «أدركت الكوفة وبها أربعة ممن يُعدُّ بالفقه، فمن بدأ بالحارث، ثنَّى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، ثم علقمة، ثم شريح، وإن قوماً أقلهم شُرَيح، لقومٌ لهم شأن»[2].

وقال الشعبي: «كان شُريح أَعْلَمهم بالقضاء».

هذه بطاقة نقدم بها قاضي الكوفة شريح القاضي الكندي العربي المسلم الفقيه وشيخ القضاة في الكوفة.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ترجمة شريح ص ١٩١٨، والإصابة ص ٣٨٨٠ ترجمة شريح أيضاً.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ١٠٢، ٤٣، ٥٦.

ـ ٣ ـ

القاضي العادل

قال شريح القاضي:

غداً سيعلم الظالم من الخاسر.

إنَّ الظالِمَ ينتظر العقاب..

وإنَّ المظلوم ينتظر، النَّصَفَةَ.

وإنِّي، أُحلِفُ بالله أنَّه ما مِنْ أحَدٍ ترك شيئاً لِلّهِ عزّ وجل ثم أَحَسَّ بِفَقْدِه...

كان لمنصب القضاء الذي اقترن باسم شريح رضوان الله عليه قصة طريفة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنمُّ عن ذكاء الرجل وحصافته وفطنته ها هو عمر يتخاصم مع رجل كان قد ابتاع منه فَرَساً ودفع ثمنه كاملاً.

وركب عمر رضي الله عنه الفرس وانطلق إلى حال سبيله، ولكنه ما كاد يترك المكان حتى بدأ الفرس يشكو من ألم فيه أعاقه عن مواصلة السير والجري فعاد عمر من حيث انطلق وقال للرجل الذي باعه الفرس:

... إن فرسك معطوب ومصاب وأريد أن أُردّه إليك وأستردَّ نقودي.

فقال الرجل: لا آخذه ـ يا أمير المؤمنين ـ لقد سلمتك الفرس سليماً.

فقال عمر: اجعل من يقضي بيننا.

فقال الرجل: يحكم بيننا شريح بن الحارث الكندي.
فقال عمر: رضيت به.

انطلق عمر وصاحبه إلى شريح وقصَّ الرجل على شريح قصته مع عمر رضي الله عنهما فالتفت شريح القاضي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال:

هل أخذت الفرس سليماً يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: نعم.

فقال شُرَيْحٌ: احتفظ بما اشتريت يا أمير المـؤمنين أو رُدَّ كما أَخَذْتَ فنظر عمر إلى شريح معجباً وقال:

وهل القضاء إلا هكذا؟! قولٌ فصل وَحُكْمٌ عَدْلٌ سر إلى الكوفَةِ فقد وليتك قَضاءَها.

عندئذٍ انطلق القاضي إلى مكان عمله حيث الكوفة موطن الفقهاء وأحسب أن الكوفةَ كلها كانت تعرف مَنْ يكون شريح فـقد ذاع علمه، وعرف الناس عنه الفطنة والذكاء، وأنه رجل يقضي بما أنزل الله، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا يخشى في الحق لومة لائم، وها نحن قد رأيناه يقضي في أمير المؤمنين ذاته بالحق، فيرى فيه الفاروق نِعْمَ القاضي: قولُه فصلٌ وحكمُهُ عدل، فائتمنه على قطاع هام من دولة المسلمين آنذاك. فقد نظر إليه بعين خبير، ولا ينبئك غير خبير، وأثبتت الأيام حسن اختيار أمير المؤمنين، فلم يستطع قاض من قضاة المسلمين أن يملأ فراغ شريح، طوال وجوده في الكوفة، فأبقى عليه في

منصبه ثلاثة من الخلفاء الراشدين، وبعدهم معاوية، فلم يجدوا من هو أفضل منه فكانت الستون عاماً التي قضى فيها بين المسلمين في الكـوفة، بل وكان هناك من يذهب إليه من الأمصار فيستفتيه عن أمرٍ من أمور المسلمين أو يسمع منه حكماً في قضيته صَعُبَت وأَشكلت على النـاس فـي حلها وترتيبها، فكان شريح يقي بما أمر الله وبسنّة رسول الله ويجتهد رأيه ويقيس الأشباه بالأمثال والنظائر.

وها هو الخليفة الرابع علي بن أبي طالب يجمع الناس في الرحبة ويقول: إني مفارقكم فيجتمعون أمامه في الرحبـة ويظلون يسألونه حتى نفد كل ما في جعبتهم من مسائل وأقضية كانت تحتاج إلى علم أمير المؤمنين، وصمت الناس ما عدا شريح فقد جثا على ركبتيه، وجعل يسأله، ولا تنفد مسائله.

فقال له علي: «اذهب فأنت أقْضى العرب»[1].

وكان شريح ملازماً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبينما هما في مجلس واحد جاءت امرأة إلى علي رضي الله عنه تُخاصِمُ زوجها الذي طلَّقها فقالت: قد حضت في شهرين ثلاث حيض.

فقال علي لشريح: اقض بينهما.

قال: يا أمير المؤمنين، وأنتَ ها هنا؟! «أي كيف أقضي وأنت جالس هنا.

(١) الحلية لأبي نعيم ج ٤/١٣٤، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٦٢.

قال علي: اقض بينهما.

قال: إن جاءت من بطانة أهلها مَنْ يُرضى دينه وأمانتُه يزعُمُ أنَّها حاضت ثلاث حيض تَطْهُرُ عند كل قرء، وتصلي، جاز لها فقال عليه السلام كلمة بلغة الروم بمعنى: أحسنت ورددها مرتين قائلاً:

قالُون ـ قالُون، أي بمعنى أحسنت»[1].

ورغم علاقته القوية بخليفة رسول الله علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أن القضاء عنده هو القضاء فكما فعل مع عمر رضي الله عنه جاء دور علي في القضاء؛ ففي ذات يوم افتقد علي بن أبي طالب رضي الله درعه الحطمية، الغالية عنده وكان قد أهداها له عثمان بن عفان من زواجه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم ما لبث علي أن وجدها في يد رجل من أهل الذمة حينما كان يمشي في سوق الكوفة فلما رآها علي في يد الرجل قال: هذه درعي سقطت عن جمل لي ليلة صفين وفي مكان كذا..

فقال الذّميُّ: بل هي درعي وملكي يا أمير المؤمنين.

فقال علي: إنما هي درعي لم أَبِعْها من أحدٍ، ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك.

فقال الرجل: يحكم بيننا قاضي المسلمين شريح.

---

(١) الحلية لأبي نعيم جـ ٤/١٣٤، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٦٢.

فقال علي: أحسنت، هيا إلى شريح.

وذهب علي وصاحبه إلى شريح القاضي ولما جلسا إليه قال شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟.

قال علي: لقد وجدت درعي هذه مع هذا الرَّجُلِ وقد سَقَطَت مني في ليلة صفين وفي مكان كذا، وهي لم تصل إليه لا ببيعٍ ولا هبةٍ لأنني لم أبعها ولم أهبها لأحد.

ثم توجه شريح للذمي بالكلام وقال: وما تقول أنت أيها الرجل؟.

فقال الرجل: الدرع درعي ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب معاذ الله من ذلك.

فالتفت شريح إلى علي وقال: لا أشك في صدقك يا أميرِ المؤمنين فيما قلت بأن الدرع دِرْعُكَ، ولكن لا بد لك من شاهدين يمثلان أمامي ويشهدان على صحة ما قلت وما ادعيت على الرجل.

فقال علي: نعم، ابني الحسن، ومَوْلَايَ قنبر يشهدان بما ادعيت.

فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين: فاعترض علي رضوان الله عليه قائلاً:

يا سبحان الله!! رجل من أهل الجنة كابني الحسن لا تجوز شهادته وقد قال عنه رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنَّةِ».

فقال شريح: بلى يا أمير المؤمنين غير أني لا أجيز شهادة الوَلَدِ لِوالِدِهِ، صمت علي برهة ثم قال للرجل: خذها.. فليس عندي شاهد غيرهما.

فقال الذمي: ولكني أشهد بأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، ثم أضاف قائلاً: يا لله.. أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه!! وقاضيه يقضي لي عليه.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

وأسلم الذمي ودخل دين الإسلام لعدل قاضي الإسلام ومثول خليفة رسول الله أمام القاضي فيقضي له على أمير المؤمنين.

ثم وقف الرجل الذمي الذي أصبح مسلماً يقول:

اعلم أيها القاضي أن الدرع درع أمير المؤمنين وأنني اتبعتُ الجيش، وهو منطلق إلى صفين، فسقطت الدرع عن جمله الرمادي اللون فأخذتها.

فقال علي للرجل: لقد وهبتها لك طالما أسلمت ومعها فرس هذا أيضاً هدية مني. فانصرف الرجل. ولم يشاهده علي إلا يوم وقعة النهروان التي دارت بينه وبين الخوارج، وقد أصبح الرجل فارساً من الفرسان المقاتلين في صفوف جيش علي ضد الخوارج وقد استشهد يوم النهروان هكذا كانت عدالة القاضي وعدل أمير المؤمنين دافعاً عظيماً للإسلام من جواهر الإسلام الذي يعبر عنه شرعه وسلوكه.

كان رحمه الله يقضي حتى على ابنه فيضرب المثل للقضاء العادل، ومن يكون القاضي العادل، وهذا هو ابنه يقول: «يا أبت إن بيني وبين قوم من الناس خصومَةٌ فانظر فيها فإن كان الحق لي قاضيتهم وإن كان لهم صالحتهم، ثم قصَّ على والدِهِ قصته مع القوم»[1].

فقال شريح لابنه: انطلق فقاضِهِم.

فمضى الفتى إلى من يخاصمهم ودعاهم إلى مجلس القضاء حيث يكون والدِه ولما جاؤوا ووقفوا بين يدي شريحٍ قضى لهم على ابنه، فاستغرب الفتى وعاد إلى المنزل مكباً حزيناً يقول فضحتني يا أبي فوالله لو لم أستشرك من قبل لما لمتك.

فقال شريح: والله لأنت أَحبُّ إليَّ من ملء الأرض من أمثالهم. ولكن الله عندي أعز منك. لقد خشيت أن أقول لك بأن الحق لهم من البداية فتذهب إليهم وتصالحهم صلحاً يضيع معه بعض من حقهم فقلت لك قاضهم وأنا أعلم أن الحقَّ لهم.

ولما كفل هذا الفتى ذات يوم أمام والده «أي ضمنه في حالة غيابه» وبعد أيام فرَّ الرجل هارباً من يد العدالة والقضاء، فسجن شريح ولده بدلاً من الرجل الهارب، وكان يحمل له

---

(١) طبقات ابن سعد، جـ ٦ جـ ٧، حـ ٨ من صفحات مختلفة جـ ٦ ص ٣٤، ٩٤، جـ ٧ ص ١٧٠، ٢٠٦ ص ٤٩٤.

طعامه في السجن كل يوم. رحم الله شريحاً فقد كان نعم قضاة المسلمين»[1].

ولعل من أخطر الناس في التقاضي بين الناس هم الشهود الذين يدلون بشهادتهم فهم عين العدالة وجزء من ميزانها الذي توزن به الأمور والأحكام.

فكان دائماً يقول لهم أي للشهود:

«اسمعوا مني هداكم الله

إنَّما يقضي على هذا الرجل أنْتُم

وإني لأتقي النار بكم، وأنتم باتقائها أَوْلَى

وإن في وسعكم الآن أن تدعوا الشهادة وتمضوا».

فإذا أصروا على الشهادة نظر إلى المتهم الذي يشهدون عليه وقال:

اعلم يا هذا أنني أقضي لك بشهادتهم، وإني لأرى أنك ظالم ولكني لا أقضي بالظنّ، وإنما أقضي بشهادة الشهود.

وإن قضائي ما يُحلُّ لك شيئاً حَرَّمَهُ الله عليك.

رحم الله شريحاً فقد كان من أعدل القضاة في الكوفة.. ضرب مثلاً للقاضي العادل الفطن.

---

(١) طبقات ابن سعد، جـ ٧، حـ ٨ من صفحات مختلفة جـ ٦ ص ٣٤، ٩٤، جـ ٧ ص ١٧٠، ٢٠٦، جـ ٨ ص ٤٩٤.

ومن ذكائه وفطنته أنه ذات يوم جاءه رجل يقرأ أمراً عندَهُ، ثم عاد فأنكره فقال شريح: قد شهد عليك ابن أخت خالتك «يقصده هو ذاته».

ومن أطرف ما عرض عليه من القضايا أن امرأتين اختصمتا عنده في وَلَد هرّة.

فقالت امرأة: هو ولد هِرّتي، وقالت الأخرى: بل هو ولد هرتي.

فقال شريح: ألقها مع هذه، فإن هي قرَّت ودرَّت واسبطرت فهي لها، وإن هي هرَّت وفرَّت واقشعرَّت، فليس لها.

هكذا كان فصيحاً في أغرب وأصعب القضايا، كبيرها وصغيرها يقضي ولا يألو جهداً من ذلك قدر ما أتاه الله من علم وفقه، يقيس الأمور على ما بين يديه من كتاب الله وسنة رسول الله، ويعمل بكلمات عمر «اجتهد رأيك» رحم الله شريح القاضي.

ـ ٤ ـ
شريح الإنسان التقي

كان رجلاً ورعاً تقياً حتى إنه كان يقول:
إني لأُصاب بالمصيبة، فأحمَدُ الله عليها أربع مرات.
أحمَدُ الله إذ لم يكُن أعظم منها. . !!
وأحمد إذ رزقني الصبر عليها. . !!
وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو مِن الثواب. .
وأحمَدُ إذ لـم يجعلها من ديني. .

إلى هذا الحد وصل خشوع الرجل ونُسكه، فصبره عبادة وحمده عبادة ما بعدها عبادة.

* * *

وعندما نشبت الفتنـة، فتنة ابن الزبير وخلافه مع بني أُمية ظل تسع سنين لا يعرف عنها شيئاً ولا يتحدث فيها.

فقيل له: قد سلمت. فقال: كيف بالهوى؟[1].

كان شريح ودوداً لأصدقائه محباً لتلاميذه ومريدي مجلسه، وها هو يسمع رجلاً يشتكي بعضِ ما أحزنه وغمه لصديق له فأخذه من يدِهِ ومال به جانباً بعيداً عن الناس وقال:

يا بن أَخي أيَّاكَ والشكوى لغير الله عز وجَلَّ
فإن من تشكو إليه لا يخلو أَنْ يكون صديقاً أو عدواً

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٤١، وأخبار القضاة جـ ٢ من ص ٢١٦ - ٢١٨.

فأما الصديق فتحزِنُه.
وأما العدو فيشمتَ بك.

ثم أضاف: انـظر إلـى عيني هذه ـ وأشار إلى إحدى عينيه ـ فوالله ما أبصرتُ بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمس عشرة سَنَةً، ولكني ما أخبرت أحداً بذلك إلا أنت في هذه الساعة، أما سمعت قول العبد الصالح:

﴿إنما أشكو بَثِّي وحزني إلى الله﴾[1].

فاجعل الله مشكَاكَ ومحزنك عند كل نائبة تنوبك «أي كل مصيبة تصيبك».
وها هو ينصح إنساناً آخر فيقول:
يا بن أخي من سَأَلَ إنساناً حاجةً فقد عَرَضَ نَفسَهُ على الرِّقِّ
فإن قضاها له المسؤول فقد استعبده بها..
وإن ردَّه عنها رجع كلاهما ذليلاً....
هذا بذلّ البخل، وذاك بذلّ الرَّدِّ
فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله
واعلم أنَّه لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ ولا عون إلَّا بالله.

رحم الله شريح القاضي فقد كان قاضياً وإنساناً مشهوداً له بحب أصحابه والإخلاص لهم.

(١) يوسف الآية: ٨٦.

وجزى الله الفاروق عمر عنه خيراً فقد اختار قاضياً ونعم القاضي، فقد ملأ الدنيا عدلاً وشرَّف قضاة الإسلام بحكمته وفطنته.

ـ ٥ ـ

وفـاتـه

عاش شريح قرابة مئة وعشرة أعوام أقـام فيها العـدل بين الناس، وقد طلب إعفاءه من القضاء قبل موته بسنة، وكان له ما أراد ومات سنة ثمانٍ وسبعين من الهجرة وقيل ثمانين.

فما حزنت الكوفة على قاضٍ من قضاتها قدر ما حزنت على شريح القاضي، فبكاه أصحاب الحاجة لعدله وسخـائه، وبكاه عامة الناس لأنه آثر الحق، ولم يخش في ذلك لومة لائم.

رضوان الله عليه وعلى الذين اتبعوه ونهجوا نهجه
عدلاً لا يـتراجع؛ بل يؤثر الحق..



مُحَمَّدُ بنُ سِيرِين



ـ ١ ـ

محمد بن سيرين

«ما رأيت أحداً أفقه من وَرَعِهِ، ولا أورع من فقهه من محمد بن سيرين»[١].

قالها مورِّقٌ العجليّ في وصف ابن سيرين.

كان محمد بن سيرين يرى أن أهل الأهواء أسرع الناس ردَّةً، وقد نزلت فيهم الآية الكريمة التي تقول:

﴿ وَإِذا رَأَيْتَ الّذينَ يَخُوضُون في آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُم حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِه ﴾[٢].

كان رجلاً سخياً، كريماً، سخاؤه كَثُر أيضاً في فقهه وعلمه كما كان كثيراً في نفسه وعلى الناس، فقد كان يقول دائماً عندما يأتيه ضيف ليطعمه في داره: «إِن الطعام أهونُ من أَن يُقْسَمَ عليه»[٣].

كان يأكل من عمل يده كداود عليه السلام فقد كان أبوه نخاساً ماهراً، واشتغل محمد بالتجارة وكسب عيشه من سعيه

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٩٦.

(٢) الأنعام الآية ٦٨.

(٣) الحلية لأبي نعيم جـ ٢ ٢٦٨.

وكسبه فكان تاجراً أميناً وعالماً حصيفاً. يأتي تجارته نهاراً فيؤديها حقها، ويغدو على بضاعته يبيعها بما يرتضيه الإسلام من ربح ومكسب، بينما يقوم ليله نافلةً عسى أن يغفر الله له ويدخله مدخل صدق، مع الأبرار والعباد الزهاد الصوامين القوامين.

كان من أبناء الموالي الذين آمنوا فأخلصوا إيمانهم لله ولرسوله فكان علمهم فوق كل عصبية يأتي بها رجلٌ من أهل الجاهلية الأولى.. ساد على من حوله بعلمه وفقهه فكان مسلماً ـ حسُن إسلامه ـ وعظم فقهه فالتفت الناس إلى مجلسه، وسعوا إلى علمه أينما كان وها نحن نسعى لقطف بعض ثمار سيرته وعلمه.

ـ ٢ ـ
بطاقة تعريف

المولد والنشأة:

في موقعة النهروان وفي منطقة جَرْجَرَايا[1] وهي بين الكوفة وبغداد سُبي سيرين وتملكه أنس بن مالك، خادم رسول الله ﷺ فأصبح من مواليه وأخلص خدمته لسيده أنس بن مالك، ثم كاتبه أنس على ألوف من المال فوفَّاها له، وبكرم الصحابي أنس أصبح «سيرين» حراً طليقاً، وعمل نحَّاساً وقد

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٦٠٦ ترجمة محمد بن سيرين رقم ٢٤٦.

كان ماهراً في هذه المهنة فدرَّت عليه قدراً وفيراً من المال، وقد وقع اختياره على مولاة أبي بكر الصديق «صفية» وتقدم لخطوبتها وكان للموالي ممن أسلموا مكانة خاصة عند أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضوان الله عليه، فقد كانت صفية بمكانة في نفسه تشابه مكانة أسماء وعائشة بناته الحرائر رضوان الله عليهم، ولما تقدم سيرين للزواج من مولاته صفية ذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أنس بن مالك وسأله عن أحوال الرجل لأنه أعرف به من غيره فقال أنس بن مالك:

زَوِّجها منه يا أمير المؤمنين، ولا تخشَ عليها بأساً فإن سيرين صحيح الدين، رجل كامل الرجولة والنخوة، معروف بخُلُقِهِ الطيب، فقد عرفته منذ أن سباه خالد بن الوليد ونحن في جَرْجَرَايا في موقعة عين التمر، وقد ضمن أربعين غلاماً، جيء بهم إلى المدينة، فكان سيرين من نصيبي أدبته وعلَّمته أحسن علم، عند ذلك وافق أمير المؤمنين على هذا الزواج المبارك وتزوج سيرين مولى أنس بن مالك من صفية مولاة أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وقد أثمر هذا الزواج المبارك ثمرة طيبة مباركة عندما رزق الزوجان بغلام أصبح له شأن فيما بعد هذا الغلام هو محمد بن سيرين الذي ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان بن عفان[١].

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٩٣.

ونشأ ابن سيرين في بيت طاهر في المدينة، وقد شغف بمجالس العلم التي كان يحضرها في مسجد رسول الله ﷺ فسمع وتعلم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، منهم: زيد بن ثابت الأنصاري، وأنس بن مالِكٍ وعمران بن الحصين، وأبو هريرة، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر.

وتعلم من هؤلاء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وبعد سنوات قلائل ترعرع الفتى وأصبح يافعاً يملؤه الحماس إلى العلم والتعلم فانتقل إلى البصرة مع أسرته وقد كانت البصرة يومئذٍ مدينة إسلامية ناشئة، أصبحت مركزاً علمياً وعسكرياً للمسلمين تستقبل الوافدين إلى دين الله أفواجاً من البلاد المفتوحة من بلاد الفرس والعراق.

وبدأ ابن سيرين يواصل مسيرته العلمية في البصرة حيث مسجدها الزاخر بالعلماء والشيوخ من أعلام المسلمين فأصبح يتعلم منهم حتى غدا عالماً له شأن عظيم.

ومن المسجد والعلم والعبادة والخشوع والانكباب على كتاب الله الكريم إلى السعي في مناكبها للنيل من رزقها، فقد عمل ابن سيرين بالتجارة ليكسب عيشه، ويكفي نفسه وأهله حاجة يحتاجها من الناس فكان عابداً صواماً قواماً، وتاجراً أميناً يشهد لأمانته مَنْ عاصروه وعاشوا عصر تجارته وورعه وخشيته.

- ٣ -

العالم الخاشع

كان ابن سيرين أفطن علماء البصرة، حسن العلم بالفرائض والقضاء والحساب وقد قال أحد معاصريه مقارناً إياه بعلماء المسلمين في الأمصار:

ثلاثة لم ترَ عيناي مثلهم: ابن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام، كأنهم التَقَوْا فَتَواصَوْا»[1].

«لم يكن أحد بالبصرة أعلم بالقضاء منه»[2] رضوان الله عليه فقد كان يطوف السوق لتجارته ويلتقي بالناس فيبصّرهم بأمور دنياهم ويذكرهم بآخرتهم.

وكان رجلاً طريفاً يمزح ويضحك في وقار يحافظ عليه ويحفظه في نفسه، فكان يخفف عن الناس بين الحين والحين همَّهم بطرفة تنفرج لها الأسارير وتطول بها الابتسامة حتى تكشف عن النواجذ.

ومن هذا أصبح محبوباً للناس، مقبولاً لديهم، كلما مرَّ بهم

---

(١) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أحد الفقهاء السبع في المدينة، وجاءت الرواية على لسان ابن عون في سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٦٠٨.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٩٦.

جـال في خـاطـرهم معنى الخشـوع، وأطيب الحـديث، فذكروا الله، ورحّـبوا به مهللين مكبرين.

كان رجلاً دقيقاً في حديثه وفي روايته، يقيّد الحديث على حروفه وقد وُصفَ ابن سيرين بأنه كان فقيهاً، عالماً، ورعاً، أديباً، كثير الحديث صدوقاً، شهد له أهل العلم والفضل بذلك»[1].

وكان ابن سيرين يقول دائماً: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[2].

وذات مرة سئل ابن سيرين عن فتيا فأحسن الإجابة عليها، فقال له رجل مِمَّن حضروا إجابته على هذه المسـألة: والله يـا أبا بكر لأحسنت الفتيا، فأعرض عنه ابن سيرين.

ثم أضاف الرجـل: مـا كانت الصحابة لتحسن أكثر من هذا.

فقال ابن سيـرين: لـو أردنا فقههم لما أدركته عقولنا.

كان دقيقاً في الرواية والفتـيا فـطناً في اختيار لفظه في الفتيا.. فقد جاءه رجل ذات يوم كان قد أفتاه في مسـألة جـاءه يقول ألم تقل فيه: ليس به بأس؟.

---

(١) صاحب الوصف ابن جرير الطبري.

(٢) الحلية لأبي نعيم جـ ٢ ص ٢٧٨.

فقال ابن سيرين: لا: إني لم أقل لك ليس به بأس، إنما قلت لك لا أعلم به بأساً»[1].

نجد هنا الفقهاء وحرصهم من محاذير الانطلاق من اختيار الألفاظ فكلمة ليس به بأس، حكم قاطع ليس فيه تعزير إذا كان خاطئاً، أما كلمة لا أعلم به بأساً، فقد دخلت تحت نطاق لا أدري وهي مصطلح فقهي معروف «من قال لا أدري فقد أفتى».

وقد وضع علمه بدقّة وحَمَّله مسؤولية هذه الفتيا. هكذا كان ابن سيرين دقيقاً في اختيار لفظه كما كان دقيقاً في روايته وتحديثه فقد كان يأخذِ الرواية بالحروف ـ في حين أنّ بعض المحدثين كانوا يأخذونها بالمعنى والمضمون، وكان رحمه الله دائم القول: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه»[2].

كان ابن سيرين يرجِّح الأثر على فقه الرأي، مُقِلًّا من الرأي، على خِلافِ فقهاء العراق في البصرة والكوفة، فكما ذكرنا آنفاً أنه يأتي الحديث بحروفه سعياً للدقة في الرواية، وها هو يرفض الرأي في مسألة عرضت عليه، فيقول رجل من معاصريه في ذلك: كنت عند ابن سيرين فدخل عليه رجل فقال: يا أبا بكر ما تقول في كذا وكذا؟ قال: ما أحفظ فيها شيئاً.

---

(١) الحلية لأبي نعيم جـ ٢ ص ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤.

فقال أحد مَنْ حوله في المجلس: قل فيها برأيك.

فقال ابن سيرين: أقول فيها برأيي ثم أرجع عن ذلك الرأي لا والله»[1] وحتى لو عرض عليه أمر فيه رأي فكان لا بد أن يستوثق منه حتى قيل في ذلك:

«إنه رحمه الله لم يعرض له أمران في دينه إلا أخذ بأوثقهما».

وقد تميّز ابن سيرين بجرأة في الحق لا يحيد عنها، ولم يَهَبْ سلطاناً في يوم من الأيام، ولقد عاش الرجل في زمن ولاة بني أمية وكان له مواقف مشهورة معهم تحرك فيها لسانه بكلمة الحق وليس بغيرها وأخلص لله النصح.

ومن هذه المواقف: عندما بعث إليه عمر بن هبيرة الفزاري والي بني أمية على العراق ـ ردحاً من الزمن ـ لزيارته، فلبى دعوته واصطحب ابن أخيه معه، فلما وصل قصر الوالي، رحّب به، وأكرم مجلسه، وسأله عن شؤون الدين، وأمور الدنيا، فأجابه كما يعلم وأحسن الإجابة.

ثم سأله الوالي: كيف تركت أهل مِصرِك يا أبا بكر؟.

فقال ابن سيرين: تركتهم والظلم فيهم فاش، وأنت عنهم لاه[2].

---

(١) الحلية لأبي نعيم الأصفهاني ص ٢٦٨.

(٢) المصدر السابق.

فنبهه ابن أخيه خوفاً من غضب ابن هبيرة الفزاري، فنظر إلى ابن أخيه قائلاً إنك لست الذي تُسْأَلُ عنهم وإنَّما أنا الذي أُسْأَلُ، وإنها لشهادة ثم قال الآية: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه ﴾[1].

ولما انفضَّ مجلس عمر بن هبيرة الفزاري وَجَدَ من يتبعه إلى خارج القصر وقد حمل كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار، وقد قدمها له هديةً من ابن هبيرة فردّها عليه ورفض أن يأخذها.

فعارضه ابن أخيه في رفضها.. فقال له ابن سيرين: يا ابن أخي إنما أعطاني لخير ظَنَّهُ بي، فإن كنت من أهل الخير كما ظنه، فما ينبغي لي أن أقبل، وإن لم أكُنْ كما ظنَّ فأحرى بي ألا أستبيحَ قبول ذلك منه.

هكذا كان ابن سيرين عالماً خاشعاً لا يطمع في مال ولا يخشى سلطاناً أو جاهاً، فعنْدَمَا قال عن البلاد التي يعيش فيها: إن الظلم قد تفشَّىَ وانتشر فيها، بينما أنت «يقصد الوالي» لاهٍ عنها ومشغول بملذاتك عما فيها من ظلم، كان يرى شيئاً واحداً فقط وليس سواه، كان يرى أنها شهادةٌ يُسأَل عنها فكره أن يكتمها، وكيف يكتم شيخ ورع كهذا، ما كان في البصرة أفقر منه ولا أورع منه كيف يكتم شهادة، وقد كان رحمه الله يدخل سوق البصرة في منتصف النهار يكبر ويسبح ويذكر الله تعالى،

---

(١) البقرة الآية ٢٨٣.

فقال له رجل عندما رآه وسمعه: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ أي حتى في السوق!! فأجابه ابن سيرين قائلاً:

«إنها ساعة غفلة»[1] حقاً لقد صَدَقَ ابن سيرين إنها ساعة غفلة.

كان تاجراً صدوقاً أميناً، من صدقه وأمانته أُمتحن، تعرض لامتحان ما يعرض عليه إلا مؤمن تقي مثله، فقد كان رحمه الله يبعد الرديء من ماله مخافةَ أن يبيعه للناس.

ومن المواقف التي عرَّضته للتعب والمشقة.. أَنه اشترى ذات يوم زيتاً بمبلغ كبير بأربعين أَلْفاً مؤجلة أي مؤخرة الثمن لحين البيع، فلما فحص زيته وجد فيه شيئاً يكرهه هو، ويعيب الزيت ويفسده، فحدَّث في نفسه أن كل الزيت فاسد، فإن رددته للبائع ربما باعه للناس وأكون قد أثمت لعلمي بفساده، فجعل يريق الزيت في الأرض، وأصبح الدَّيْنُ أربعين أَلفاً في عنقه ـ وقد حلَّ سداده، فلم يستطع، فقاضاه صاحب الزيت إلى الوالي فأمر الوالي أن يسدد أو يدخل السجن، فدخل السجن وطالت أيامه فيه حتى إن السّجان أشفق عليه قائلاً: أيها الشيخ، إذا كان الليل فاذهب إلى بيتك وأهلك وبِتْ معهم. فإذا كن الصبح فعد إليَّ وَداوِمْ على هذا الحال حتى ينتهي سجنك.

---

(١) الحلية جـ ٢ ص ٢٧٢.

فقال ابن سيرين: لا، لا أفعل ذلك، حتى لا أُعاونك على خِيانَةِ ولي الأمر.

ومن سنوات سجنه احتضر أنس بن مالك، رضي الله عنه، وكان له في قلبه مكان لصحبته وأبيه منذ وصولهم من «جَرْجرايا» إلى المدينة، فأوصى أنس وهو يحتضر بأن يغسله محمد بن سيرين ويصلي عليه(١).

فلما مات أنس جاء لابن هبيرة الفزاري من يبلغه وصية أنس بن مالك فأذن الوالي لهم وقصدوا السجن لابن سيرين فلما بلّغوه وأخبروه أمر الوالي.

قال لهم: لا أخرج.. فجاء الناس في أمره وقالوا: يا رجل؟ ولِمَ.

فقال ابن سيرين: لا أخرج حتى تستأذنوا صاحبَ الدَّين، فإنما حُبستُ بمالَهُ عَلَيَّ من الحَقِّ.

فذهبوا للدائن فأذن له، عند ذلك خرج من السجن، فغسَّل أُنساً وكفَّنه وصلى عليه تنفيذاً لوصيته، وعاد إلى السجن كما هو ولم يعرّج على بيته ليرى أهله.

أليس في هذا المثل الأعلى والقدوة الحسنة لرجل هو عالم مشهود له بين المسلمين كان يستطيع أن يتجاوز كل هذا ويقف على باب السلطان متوسلاً أن يُقْضَى عنه دينه ولكنه لم يفعل.

---

(١) القصة وردت في الحلية جـ ٢ ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

كان رحمه الله «إذا سئل عن الحلال والحرام تغيَّر لونه حتى يقال عنه: كأَنه ليس بالذي كان»[1].

وفي تجارته قال أحد معاصريه: كان محمد يتَّجر، فإذا ارتاب في شيء تركه[2] وقد وصفه في بيعه وشرائه رجل آخر من معاصريه وهو ميمون بن مهران[3] فقال: قدمت الكوفة وأنا أُريد أَن أشتري البزَّ، فأتيت ابن سيرين بالكوفة، فساومته، فجعل إذا باعني صنفاً من أَصناف البزّ قال: هل رضيت؟ فأقول: نعم، فيعيد ذلك علي ثلاث مرات، ثم يدعو رجلين فيُشْهدهما.

وكان لا يشتري ولا يبيع بهذه الدراهم الحجَّاجيَّة، فلما رأيتُ ورعه، ما تركت شيئاً من حاجتي أجِدُه عنده إلاَّ اشتريتُه، حتى لفائف البَزّ (يقصد أبسط الأشياء عنده).

رحم الله ابن سيرين فقد كان إذا وقع عنده درهم زيف أو قديم قِدَم الدراهم التي تضرْ بأصحابها فلا تجد لها مصرفاً إذا وقع عنده هذا أبعده، حتى قيل إنه يوم مات وُجد عنده من هذا خمسُ مئةٍ هكذا كان تاجراً أميناً نعم التجار رحمه الله.

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٦١٣.
(٢) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٩٧.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٢.

ـ ٤ ـ

مفسّر الأحلام

ومما انفرد به الرجل تفسير الأحلام والقول فيها.. فقد جاءه رجل ذات يوم فقال: رأيت كأن حمامةً التقمت لؤلؤة، فخرجت منها أعظم ما كانت، ورأيتُ حمامةً أخرى التقمت لؤلؤةً فخرجت أصغر ممَّا دخلتْ، ورأيتُ أُخرى التقمت لؤلؤة فخرجت كما دخلت.

فقال ابن سيرين: أما الأولى فذاك الحسن البصري يسمعُ الحديث فيجُودُه بمنطقه ويصلُ فيه من مواعظه.

وأَمَّا التي صَغُرَتْ فأنا، أسمع الحديث فأُسْقِطُ منه.

وأما التي خرجَتْ كما دخلَتْ فقتادةُ، فهو أحفظ الناس[١].

وفي موقف آخر جاءه عبدالله بن مسلم المروزي أحد أعلام البصرة قال: كنت أجالس ابن سيرين فتركته وجالست الإباضية[٢]، فرأيت في نومي كأني مع قوم يحملون جنازة النبي ﷺ.

فأتيت ابن سيرين فذكرتُهُ له، فقال: ما لك جالست أقواماً يريدون أن يدفنوا ما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ١٥ ص ٢٢٧.
(٢) الإباضية: قوم من الخوارج لهم فكر غير مستحب لعامة المسلمين.
(٣) المصدر السابق.

وذات يوم قصَّ رجل على ابن سيرين فقال: رأيت في منامي كأن بيدي قدحاً من زجاج فيه ماء، فانكسر القدح وبقي الماء، فقال له: اتق الله فإنك لم تَرَ شيئاً..

فقال الرجل: سبحان الله، لقد رأيت ما قصصته عليك.

فقال ابن سيرين: فمن كَذَبَ فَمَا عليَّ؛ سَتَلِدُ امرأتُك وتموت، ويبقى ولَدُها فلما خرج الرجل قال: والله ما رأيت شيئاً، فما لَبِثَ أن وُلِدَ له وماتت امرأتُه(١).

ودخل عليه ذات يوم رجل آخر فقال له يا ابن سيرين:
- رأيت كأني وجارية سوداء نأكل من قصعةٍ سمكةً.

قال: أتُهيِّئُ لي طعاماً وتدعوني؟.

قال الرجل: نعم، وهيأ له طعاماً ودعاه، فلما وُضِعَتِ المائدة إذا بجارية سوداء تضع المائدة.

فقال ابن سيرين: هل أصبت هذه؟ فقال: لا.

قال: فادخل بها المخدع، فدخل الرجل وبعد برهة صاح: يا أبا بكر، رجل والله رجل والله.

فقال ابن سيرين: هذا الذي شاركك في أهلك(٢).

وجاء رجل ذات يوم يقول: رأيت كأني أبول دماً، قال تأتي امرأتَك وهي حائضٌ.

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٦١٧.

(٢) ابن عساكر جـ ١٥ ص ٢٢٨ والمصدر السابق ص ٦١٨.

قال الرجل: نعـم، قال ابن سيرين: اتق الله ولا تضرب العود.

وجاءه رجل ذات يوم يقول له: يا أبا بكر رأيت في المنام كأني أشرب من بلبلة لها مثقبان، فوجدت أحدهما عذباً والآخر مالحاً.

قال ابن سيرين: اتق الله لك امرأة وأنت تخالف إلى أختها.

ومما رأى الحجاج بن يوسف الثقفي كأنَّ حَوْداوَيْنِ أتتاه فأخذ إحداهما وفاتته الأخرى. فكتب بذلك إلى عبد الملك بن مـروان، فكتب إليه عبد الملك هنيئاً يا أبا محمد، فبلغ ذلك ابن سيرين فقال أخطأت استه الحفرة، هذه فتنتان يدرك إحداهما وتفـوته الأخـرى، قال: فـأدرك الجماجم وفـاتته الأخرى[1].

ومن أغرب ما فسَّر ابن سيرين أن جاءه رجل وقال: إني رأيت كأنَّ على رأسي تاجاً من ذهـب، فقال له ابن سيرين: اتـق الله فإن أباك في أرض غربة وقد ذهب بصره وهو يريد أن تأتيه.

قال الرجل: هذا كتاب من أبي يذكر فيه ذهاب بصره، وأنه في أرض غربة ويأمرني أن أذهب إليه[2].

---

(١) الحلية لأبي نعيم.
(٢) الحلية جـ ٢ ص ٢٧٨.

وجاءه رجل يقول: رأيت في منامي كأني أحرث أرضاً لا تنبت، قال ابن سيرين:

أنت رجل تعزل عن امرأتك[1].

وسئل ذات يوم عن رؤيا قال فيها صاحبها: رأيت كأنَّ الجوزاء تقدمت الثُّرَيَّا.

قال ابن سيرينٍ: هذا الحسن البصري يموت قبلي، ثم أتبعه، وهو أَرفع مني[2].

وقد قال الرواة والمؤرخون عن ابن سيرين في ذلك:

«لقد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب يطول الكتاب بذكرها، وكان له في ذلك تأييد إلَهي»[3].

ـ ٥ ـ

العابد الصالح

كان رحمه الله يعمل بقول الله عزَّ وجل ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ وها هي حفصة بنت سيرين تقول عن علاقة محمد بن سيرين بأُمه صفية رضوان الله عليها:

«كانت والدة محمد حجازية، وكان يعجبها الصِّبْغُ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى أَلين ما يجد، فإن كان عيد،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحلية لأبي نعيم جـ ٢ ص ٢٧٧.

(٣) هذا هو رأي الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٦١٨.

صبغ لها ثياباً، وما رأيته رافعاً صوته عليها، كان إذا كلَّمها كالمصغي إليها»[1].

وعن علاقته بأمه قال رجل معاصر له[2]: إن محمداً كان إذا كان عند أُمه لو رآه رجلٌ لا يعرفه، ظنَّ أَنَّ به مَرَضاً من خفض كلامه عندها.

وقد اتصف الرجل بالصلاح والخلق القويم فكان إذا ذكر القومُ عنده رجلاً بسيئة ذكره بحسنة بل بأحسن ما يعلم، وذات يوم جاءه قوم من الناس وقالوا له:

إنا نلنا منك فاجعلنا في حِلٍّ «أي سامحنا لأننا اغتبناك» فقال الرجل: لا أَحِلُّ لكم شيئاً حرَّمه الله عز وجل[3].

وكان مجلسه رحمه الله مجلس خير وبرٍ وموعظة لا يُغتاب أَحدٌ في حضرته، فقد سمع ذات يوم أحد الناس في مجلسه يسبّ الحجاج بن يوسف الثقفي أحد ولاة بني أمية العُتاة الأشداء الذي بطش بالناس وقسىٰ عليهم وفتك بهم، وكان الحجاج قد مات، فلما سمع ابن سيرين الرجل يَسب الحجاج اقترب منه قائلاً:

«لا تتكلم هكذا يا بن أخي، فإن الحجَّاج مضى إلى رَبِّه، وإنك حين تَقْدُمُ على الله جَلَّ وعَزَّ سَتَجِدُ أَنَّ أَحْقَرَ ذَنب ارتكبْتَه

---

(١) الطبقات جـ ٧ ص ١٩٨.
(٢) ابن عون من المصدر السابق وابن عساكر جـ ٥ ص ٢٢٣.
(٣) ابن سعد جـ ٧ ص ٢٠٠، والحلية جـ ٢ ص ٢٦٣.

في الدنيا أَشدُّ على نَفْسِك من أعظم ذنبٍ اجترحه الحجاج.

فلكل منكما يومئذ شأن يُغنيه، واعلم يا بن أخي أن الله عزَّ وجل سوف يقتص من الحجاج لمن ظلمهم كما سيقتص للحجاج ممن يظلمونه فلا تشغلن نفسك بعد اليوم بِسَبِّ أحدٍ»[1].

وكان إذا ودَّع شاباً لتجارة يوصيه قائلاً:

يا بنَ أخي، اتق الله عزَّ وجل، واطلب الحلال ما قدر لك من طريق حلالٍ، واعلم أنَّك تطلبه من غير حِلِّه لم تُصِبْ أكثر مما قُدِّرَ لك.

كان مشهوراً بالوسواس، حتى إن كان يغتسل كل يوم.. وقال عنه رجل معاصر له: «رأيته إذا توضأ فغسل رجليه حتى بلغ عضلة ساقيه» رحم الله ابن سيرين فقد كان حريصاً على أداء فرائض ربه كما يجب، دقيقاً في وضوئه، خاشعاً في صلاته، وَرِعاً في علمه..

---

(١) الحلية لأبي نعيم جـ٢ ص ٢٦٣ : ٢٧٠.

ـ ٦ ـ

من وصاياه

أوصى ابن سيرين أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، وأن يطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيمُ بَنِيهِ ويعقوب، ﴿يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصطفى لكم الدِّينَ فلا تَموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾[١].

وأوصاهم أن يَدَعُوا أن يكون إخوان الأنصار مواليهم في الدين، فإن العفاف والصدق خَيْرٌ وأبقى وأكرم من الزنى والكذب، وأوصى فيما ترك: إن حدث بي حدث قبلُ أُغيِّر وصيتي، ثم ذكر وصيته رحمه الله[٢].

وقد قال ابنه عبدالله، لما ضمنت على أبي دَيْنَه، قال لي بالوفاء؟.

قلت: بالوفاء يا أبي، فدعا لي بخَيْر، فقضى عبدالله عنه ثلاثين ألف درهم، فما مات عبدالله حتى قَوَّمَ الناس ماله ثلاث مئة ألف درهم أو يزيد.

كان رحمه الله رجاء الموحدين فقد كان دائماً يتلو[٣] هذه الآيات:

---

(١) الآية ١٣٢ سورة البقرة.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٢٠٥.

(٣) الحلية للأصفهاني جـ ٢ ص ٢٧٠.

- ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1]

- ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[2].

- ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾[3].

كان رحمه الله يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان الذي يفطر فيه يتغدى فلا يتناول عشاءه ثم يتسحر ويصبح صائماً.

قال جار له: كنا نسمع بكاءه بالليل وضحكه بالنهار.

— ٧ —
وفاته

رحم الله ابن سيرين فقد كان إمام البصرة وفقيهها، وقد مات بعد الحسن البصري بمائة يوم وقد بلغ عامه السابع والسبعين بعد حياة حافلة بالتقوى رُفع صاحبها إلى أصحاب اليمين والمقربين من الصديقين والشهداء رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) سورة الصافات ٣٧/٣٥.

(٢) سورة المدثر ٧٤/٤٢ و٤٣.

(٣) سورة الليل ٩٢/١٥ و ١٦.

عَطَاءُ بنُ رَبَاح

ـ ١ ـ

عطاء بن أبي رباح

قال عطاء بن أبي رباح ينصح أحد تلاميذه:

«يا بن أخي إن من كان قبلكم، كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يَعدُّون فضوله، ما عدا كتاب الله عزَّ وجل أن تقرأه أو تأمر بمعروف أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد منها، أتنكرون[1]: ﴿وإن عليكم لحافظين * كِراماً كاتبين﴾[2].

ثم أضاف وأن مع كل منكم ملكين: عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. كان عطاء بن أبي رباح فقيه مكة، وعالمها الكبير، أحد التابعين الثقاة، ماذا تريدان نقول من خلال سيرته؟. نحن نريد أن نقدم صورة من قريب نعيش في ظلالها سنوات في قرن هو خير القرون، القرن الذي عاش فيه رسول الله ﷺ الذي قال: «خير القرون قرني».

---

(١) العقد الثمين جـ ٦ ص ٩٠.

(٢) الآيتان ١٠، ١١ من سورة الانفطار.

ولا عجب إذا كانت البداية بهذه القصة الطريفة التي لا يُعد عطاء بطلها وحده وإنما معه صحابيٍ فقيه له شأن عظيم، إنه عبد الله بن عمر، جاء إلى مكة طائفاً وساعياً بين الصَّفا والمروة فتكاثر عليه القوم واجتمعوا حوله يسألونه ويستفتونه فقال للناس وقد أصابته الدهشة:

«أتجمعون لي المسائل يا أهل مكة، وفيكم ابن أبي رباح»!! إن لهذا العجب قصة، هي قصة فقيه ما كان يفتي عالمٌ في مكة وهو بها. قال عنه الإمام أبو حنيفة النعمان: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء بـن أبي رباح..

إذن هل حان وقت الاقتراب من هذه السنوات المباركة، ومن مجلس هذا التابعي الثقـة الـفقيه العالم عطاء؟ نعم فلنلتقي بالسيرة والفكر.

ـ ٢ ـ
بطاقة تعريف

كان عطاء بن أبي رباح عبداً حبشياً مملوكاً لامرأة من أهل مكة، كان مخلصاً في خدمتها، واسمه أسلم، نشأ في مكة، وَوُلِدَ في خلافة عثمان بـن عفان في بلدة في اليمن جنوب غرب صنعاء وهي مقابلة لمدينة تعز من جهة الشرق، وجاء إلى مكة مع أبيه وهو غلام.

كان عطاء أسودَ أعوَرَ أفطس أشلّ أعرج، ثم أصبح ضريراً فيما بعد. ولكنّه كان فقيهاً ثقة، عالماً كثير الحديث.

وفي بيت سيدة من نساء مكة كان الغلام الحبشي يؤدي عمله المكلف به على أكمل وجه بينما جعل فراغه لعبادة الله عزّ وجل يَأخذ وقته كاملاً، فكان يؤدّي فرضه كما تعلمه من الصحابة الذين عاصرهم ونهل من علمهم، فأخذ علمه وروايته عن أبي هريرة، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وحواري رسول الله عبدالله بن الزبير رضوان الله عليهم أجمعين، فأشبع نفسه وغايته من علمهم وروايته فكثر حديثه وروايته، ووُصِفَ بين العلماء والفقهاء بأنه كثيرُ الحديث لكثرة حرصه على ذلك.

كان عطاء قليلَ الكلام يؤثر الصمتَ إلا فيما يحتاج إليه أو يحدث به الناس في مجلسه وقد قال معاصرٌ له هو إسماعيل بن أمية في هذا الشأن: كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم يخيل إلينا أنَّهُ يُؤَيَّدُ.

كانت هذه الفضيلة من أخلاقه الكريمة التي يشهد له فيها الرواة كان يسمع محدثه جيداً بما أوتي من أدب الاستماع ولقد كان من أطرف مواقفه في هذا الشأن الذي حدَّث بها معاذ بن سعيد عندما قال: «كنا عند عطاء، فتحدث رجل بحديث فاعترضَ له آخر في حديثه، فقال عطاء: سبحان الله، ما هذه الأخلاق ما هذه الأخلاق، إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم به منه، فأريه أني لا أحسن منه شيئاً»[١].

---

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ ٦ ص ٩٠.

هكذا كان الرجل يحكم عواطفه وما يخالج نفسه من غيرة على العلم فيقول أيضاً:

«إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنصتُ له، كأني لم أسمعه قط وقد سمعته قبل أن يولد».

إن طالب العلم كتاجر متعطش للشراء يؤثره على البيع لعلمه بقيمة ما يشتري وعطاء بن أبي رباح رجل كبر وترعرع في مجالس العلم، وليكن من الأنسب بعد هذه البطاقة الصغيرة التي تعرفنا من خلالها على فقيهنا أن نتحدث عن عطاء العالم.

ـ ٣ ـ

عطاء العالم المحدث

إن كلمات الرجل العالم تخرج من فمه مسترسلة فياضة بما خزن في جعبته وأمسك، فعندما يدعها تنطلق للناس تكون نسيجاً متناسق الجوانب والأركان فها هو ابن جريج وكوكبة من التابعين يطوفون بيت الله الحرام مهللين مكبرين جماعات.. جماعات، وأمام هذه الكوكبة يرتفع صوت عطاء بالدعاء إلى رب البيت والتضرع إليه، وكم طاف حول البيت فحجّ واعتمر، وبينما هو في تعبده ونُسكه فإذا به يلتفت إلى تلاميذه قائلاً: احفظوا عني خمساً: القدر خيرُه وشرُّه، حلوُه ومرُّه، من الله تعالى، ليس للعبد فيه مشيئة ولا تفويض وأهل قبلتنا مؤمنون،

حرامٌ دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وقتال الفئة الباغية بالأيدي والسلاح، والشهادة على الخوارج بالضلالة»[1].

وانطلق فى طوافة لا ينطق بكلمة واحدة بعدها، وانصرف ذهنه لإنهاء ما بدأ من فريضة، ولما كانت مكة هي أم القرى تحتضن في جوانحها بيت الله الحرام، لذلك فهي مزار لكل علماء المسلمين، في حين أن عطاء بن أبي رباح من سكانها القاطنين فيها، المعاصر لأكثر من مائتي صحابي.

وها هو الإمام أبو حنيفة رضوان الله عليه يقبل على البلد الطيِّب ويلتقي بشيخها وفقيهها عطاء الذي ملأ الآفاق بعلمه وفقهه فشاع اسمه وصار علماً حتى لمن سكن الكوفة، ويبادر عطاءُ أبا حنيفة: من أين أنت؟.

فيجيب أبو حنيفة: من أهل الكوفة.

فقال عطاء: من أهل القرية الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً.

فقال أبو حنيفة: نعم.. وصمت برهة؛ فإذا بالرجل يواصل التساؤل ويقول: من أي الأصناف أنت؟.

فيجيب أبو حنيفة: ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحداً بذنب.

فقال عطاء لأبي حنيفة: عرفت فالزم.

هذا الحوار بين العالمين الجليلين يبين دقة اهتمامهم ومدى

---

(١) المصدر السابق.

علمهم بأمور الدنيا والدين ولا يمرّ يوم في مكة دون أن يجيء لعطاء فيسأل ويستفتي فما إن انتهى حوارهم هو وأبو حنيفة حتى جاء مَنْ يسأل ويقـول: الرجـل يمرُّ بالقوم فيقذفه بـعضهم أنُخبره؟.

فقال عطاء: لا، المجـالس بالأمانة.

بهذه الأمانة في الحديث عن المجالس اتَّسم عطاء بن أبي رباح، فراح يقول: المجالس أمانة.. المجالس أمانة ولقد كانت لغة بلاده الأصلية الحبشة «وبعض المؤرخين قالوا إنه نوبي»[1] كانت عقبة في مشوار علمه وفقهه فقال هو نفسه: «وددت أنـي أُحْسِنُ العربية».

لقد فاق عطاء رغم كل ذلك أهل مكة في الفتوى وهذه الشهادة جاءت إقراراً من فقيه وشيخ من شيوخ المدينة الذي قال عنه: «فاق عطاء أهل مكة في الفتوى»[2].

كـان المسجد فراشه طوال عشرين عاماً ظل يفترشه يتعلم ويعلم الناس حتى إنه أثار ذات يوم حفيظة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك أحد كبار خلفاء بني أمية والذي أخرج الخلافة من أولاده وعهد بها إلى عمر بن العزيز ففي العام السابع والتسعين من الهجرة حجَّ سليمان بن عبد الملك خليفة المسلمين وأعظم ملوك الأرض حج بيت الله الحرام، ومشى

(١) سير أعلام النبلاء عن ابن داود جـ ٥ ص ٨٣ ـ ٨٥.
(٢) ربيعة الرأي ـ العقد الثمين جـ ٦ ص ٨٦.

يطوف حاسرَ الرأس حافيَ القدمين لا يلبس إلا إزاراً ورداً وقد تساوى في هذه اللحظات العظيمة جمهرة المسلمين، فلا فرق بين سيّد وَمَسودٍ وعربيّ وعجمي إلا بالتقوى ومشى الخليفة طائفاً ولداه غلامان يفع عددهما وبلغا من العمر الخطوات الأولى من ربيعة، وما إن انتهى الخليفة من طوافه حتى مال على رجل من حراسه وخاصته وقال له:

أين صاحبكم عطاء بن أبي رباح؟.

فقال: إنه هناك قائم يصلي، ورفع يده مشيراً إلى الناحية الغربية من بيت الله الحرام حيث اعتاد الجلوسَ عطاءُ رضوان الله عليه، فاتجه الخليفة إلى حيث أشار، واجتهد الحراس والحاشية في إفساح الطريق أمام الخليفة فأشار إليهم أن كُفُّوا عن هذا فنحن في مكان يستوي فيه السيّد والمسود والمُلوكُ والسوقَةُ، ولا يفضل فيه أحداً إلا بالقبول والتقوى، وربَّ فقيرٍ وضيعٍ أشعث أغبر جاء إلى ربه في بيته المحرم فتقبله قبولاً حسناً بما لم يتقبل به الملوك وأهل السلطان. وجاء سليمان بن عبد الملك إلى حيث يجلس عطاء ومعه أبناؤه فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته وقد اكتظ الحرم بالمصلين خلفه استغفر وسبح وكبر وحمد الله كثيراً، اقترب سليمان وأجلس معه ولديه وراح يسأل الشيخ عن الحج والمناسك، بينما أخَذَ الفتيان يتأملان عبداً أسود أفطس الأنف، مفلفل الشعر، وقد أخذتهما طلاقة حديثه وعلمه الذي لا ينضب، ففاض بالإجابة على كل ما سأل فيه أمير المؤمنين

بينما تحفظوا لكونه عامل أمير المؤمنين كعامة المصلين حوله، ولما انصرف أمير المؤمنين ومعه ولداه شاهد في صمتهما اشمئزازاً وضيقاً مما حدث مع هذا الرجل فبادر أحدهما بالسؤال من هذا الذي لا يعي اهتماماً لأمير المؤمنين؟.

فانفرجت أسارير سليمان بن عبد الملك وهون مما يجول في نفس الغلامين وقال:

«هذا الذي رأيتموه يا بَنيَّ، ورأيتما ذلنا بين يديه هو عطاء ابن أبي رباح صاحب الفتيا في مكة والمسجد الحرام».

وما إن فَرَغَ من حديثه حتى سمعا عامل أمير المؤمنين ينادي بأعلى صوته:

يا معشر المسلمين.. يا معشر المسلمين، لا يفتي الناس في هذا المقام إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يكن فعبدالله بن أبي نُجَيْح[1].

فبادر أحدهما يقول لوالِدِهِ، وعاملك يا أبي ينادي به.

فقال سليمان لابنه: نعم.. نعم يا بني، ثم توجه بالحديث إليها قائلاً:

«يا بَنيَّ لا تنيا من طلب العلم، فإني لا أنسىَ ذلَّنا بين يدي

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٨٢ رواية إبراهيم بن عمر بن كَيْسان قال: ـ أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس.. إلخ.

هذا الرجل عطاء بن أبي رباح العبد الأسود»[1].

ولم يخطىء عمرو بن دينار أحد التابعين الثقاة المعاصرين لعطاء عندما قال:

«ما رأيت مثل عطاء قط وما رأيت على عطاء قميصاً
ولا رأيـت عليه ثوباً يساوي خمسة دراهم»[2]

ولم يمنعه مظهره من نشر علمه وفتواه ولم يرغب في مال ولا عرض دنيا كان بإمكانه أن ينال منه الكثير لو رغب ولنترك العنان لقصة لا بد أن نسجلها لعطاء بن أبي رباح هي مزيج من زهد العالم في الدنيا ورغبته في الآخرة وقد أتته الدنيا بكل ما فيها من مال وسلطان..

هذا عطاء الخراساني أحد أبناء الأشراف في عصره وقد ركب بغلته وارتدى ثيابه التي تناسب لقاء أميـر المؤمنين وصحب أبـاه للقاء هشـام بن عبد الملك.. يقـول عطاء الخـراساني: انطـلقت مع أبي وهو يريد هشام بن عبد الملك فلما ركبنا إذا شيخٌ أسود على حمار، عليه قميص دَنِس رث، وجبة دَنسِة وقلنسوة لاطئة أصابها ما أصابها من عدم المداومة على نظافتها والاهتمام بشأنها، وركاباه من خشب.

---

(١) وردت القصة في العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ ٦ ص ٨٩، ٩٠، وأوردتُها مع تصرُّفٍ طفيف في النص.
(٢) المصدر السابق.

فضحكت وقلت لأبـي: مـن هذا الأعرابي يا أبي؟.

قال أبوه: اسكت، هذا سيد فقهاء أهل الحجاز، هذا عطاء بن أبي رباح فلما قربا منه نزل والد عطاء الخراساني عن بغلته، ونزل عطاء بن أبي رباح فَهَشَّ وبَشَّ كلُّ منهما للآخر فاعتنقا وتسالما، ثم عاد فركبا فانطلقا، حتى وقف الجميع بباب هشام.

وانطلق حارس هشام يبلّغه بوصول فقيه مكة عطاء بن أبي رباح.

قال هشام: ادخله ومن معه على الفـور، حتى قال والد عطاء الخراساني:

«فوالله ما دخلت إلا بسببه».

فلما رآه هشام قـال: مـرحباً ها هنا، مرحباً ها هنا، وراح يفسح له مجلسه فرفع حتى تساوت ركبته بركبة هشام، وكان في مجلس هشام أشراف القوم والناس يتحدثون، فسكتوا لـدخول عطاء بن أبي رباح وبعد الترحيب بالعالم الـرثّ الملابس كما وصفه الخراساني في أول حديثه قال أميـر المؤمنين مبادراً عطاء في الحديث[1]:

ـ ما حاجتك يا أبا محمد؟.

قال عطاء بن أبي ربـاح: يـا أمير المؤمنين، أهل الحرمين

---

(١) العقد الثمين جـ ٦ ص ٨٥.

أهل الله، وجيران رسول الله ﷺ تقسم فيهم عطياتهم وأرزاقهم.

قال هشام: نعم، ثم صاح على غلامه: يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءين وأرزاقهم لسنة.

ثم قال هشام: أمن حاجةٍ غيرها يا أبا محمد؟.

قال عطاء: نعم يا أمير المؤمنين أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام، ردَّ فيهم فضول صدقاتهم.

فأجابه هشام: نعم، اكتب يا غلام، بأن ترد فيهم صدقاتهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد.

قال عطاء: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم، قد أجريتم لهم أرزاقاً تدرها عليهم، فإنهم إن هلكوا غُزيتم.

قال أمير المؤمنين: نعم، اكتب يا غلام، تحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟.

قال عطاء: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم لا تجبي صغارهم، ولا تتعتع كبارهم ولا يكلفون ما لا يطيقون، فإن ما تجبونه معونة لكم على عدوكم.

قال هشام: نعم، اكتب يا غلام بأن لا يُحمَّلوا ما لا يطيقون.

هل من حاجة غيرهما؟.

قال عطاء: نعم يا أمير المؤمنين:

اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتحشر وحدك وتحاسب وحدك ولا والله ما معك ممن ترى أحد.

فأكب هشام وراح ينتحب ويبكي من شدة ما سمع من شيخ مكة وإمامها بينما انصرف الناس في المجلس إلى صمت خاشع ودموع تغسل الذنوب وفكر يمحّص ويقلّب هذه المعاني العظيمة في حديث إمام وفقيه من فقهاء مكة الأجلاء، هل من علم وعالم أجل من هذه المعاني أو من هذا الأجلٍّ الأفضل الذي أثر على نفسه العمل من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واستودع عطاء أمير المؤمنين وصحبه الله وخرج، وما إن وصل الباب حتى وجد رجلاً من رجال هشام بن عبد الملك يتبعه وقد حمل بين يديه كيساً من المال وقال له: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذه..

فقال عطاء: قل لأمير المؤمنين:
﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، إِنْ هُوَ إلَّا ذِكْرى للعَالَمِين ﴾(١).

ثم خرج الشيخ بينما وقف رجل هشام مبهوتاً وقد أصابته الدهشة من هذا الرجل.. فإنه نسيج وحده.

ويضيف الخراساني قائلاً:

---

(١) سورة الأنعام ٦/ ٩٠.

«لا والله ما شرب حسوة من ماءٍ فما فوقها».
أي أنَّه لم يشرب في كل هذا المجلس حتى شربة ماء.

وللعلم شرفه ومكانته وقد شرَّف العلم أصحابه ومنهم عطاء رضوان الله عليه وقد عبر الزهري عن ذلك عندما قال[1]:

«قَدِمْتُ على عبدالله بن مروان.
فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة. فقال: فمن خلّفت يسودها من أهلها؟ - وكان الزهري فقيهاً عالماً وقصد عبد الملك من يسودها في الفقه -.

قال الزهري: عطاء بن أبي رباح.
قال عبد الملك: فمن العرب أم الموالي؟.
قال الزهري: من الموالي. قال عبد الملك: وفيم سادهم؟.
قال الزهري: بالديانة والرواية، فهز عبد الملك رأسه قائلاً:
إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا.

وهل هناك أفضل من رجل جمع بين دينه وعلمه، فأخلص في دينه وسخر له علمه هكذا كان عطاء رجل علم في دينه رضوان الله عليه.

كان عطاء رجلًا صوّاماً قوّاماً زاهداً في دنياه راغباً في

---

(١) العقد الثمين جـ ٦ ص ٨٩، سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٨٢.

آخرته، كان يريد بالعلم وجه الله تعالى حتى قال رجل هو من مريديه[1] عندما همَّ يتحدث عنه:

ما رأيت أحداً يريد بالعلم وجه الله تعالى، غير هؤلاء الثلاثة: عطاء، وطاووس، ومجاهد.

شهد له أقرانه بالإيمان في حياته وها هي سيرته تشهد أنه كان رجلاً صالحاً رحمه الله، فأقرانه يقولون: «واللهِ ما رأينا إيمان أهل الأرض يعدل إيمان أبي بكر، ولا رأينا إيمان أهل مكة، يعدل إيمان عطاء بن أبي رباح».

وعندما قال ابن عيينة التابعي الثقة لواحد من صفوتهم الذين اتبعوا المهاجرين والأنصار بإحسان وهو ابن جريج: ما رأيت مصلياً قبلك!

فقال ابن جريج على الفور وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة ساخرة:

وكيف لو رأيت عطاء بن أبي رباح مصلياً؟!!.

كان رحمه الله عابداً ناسكاً من تابعي مكة وعلمائها وزهادها. حتى إنه في شيخوخته كان يقوم للصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة، وهو قائم لا يهتز له بنان ولا يزول منه شيء ولا يتحرك.

---

(١) هو سلمة بن كهيل ـ العقد الثمين جـ ٦ ص ٨٩.

ومن أشهر ما أفتى به العابد الناسك عن نص قراني صريح وأجمع عليه المفسرون أيضاً فقد روى رجل من أصحابه[1] قال دخلت على عطاء في رمضان وهو يأكل ورأيته يشرب ويقول: قال ابن عباس نزلت هذه الآية: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فدية طعام مسكين فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهوَ خيرٌ له ﴾[2].

فنسخت الأولى إلا الكبير الفاني أي الشيخ الهرم إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً، وقد أجمع المفسرون على هذا وأضافوا «والحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا».

كان رحمه الله مكرماً بالعلم من ربه، ناسكاً شديد الخشوع حتى إن أهل مكة كانوا يقيمون المناظرة بينهم - ولم يزالوا متناظرين حتى خرج عطاء بن أبي رباح إلى المدينة، فلما رجع إليهم استبانوا فضله عليهم، ومدى حاجتهم لوجود هذا الراهب العابد المخلص إلى جوارهم.

كان مجلسه ذكر الله لا يفتر ولا يهدأ، بينما الناس يخوضون، فإن تكلم أو سئل عن شيء أحسن الجواب.

وها هو يعبر عن نفسه في حديث يريد به نصح المسلمين وإفتاءهم فيقول:

---

(١) ابن أبي ليلى في سير أعلام النبلاء ص ٨٢ أخرجه أبو دواد ٢٣١٨ والطبري ٣/٤٢٧.

(٢) سورة البقرة ٢/١٨٤.

«لو ائتمنت على بيت مال لكنت أميناً، ولا آمن نفسي على أمة شوهاء».

هكذا تطابق مضمون السنة مع علم العالم والفقيه عطاء بن أبي رباح فقد قال رسول الله ﷺ: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يشتهد ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة، من سرته حسنته، وساءته سيئة. فذلكم المؤمن»[1].

— ٤ —
وداعاً شيخ فقهاء مكة

ومن العام الخامس عشر بعد المائة أسلم الشيخ الروح إلى بارئها وصعدت تسمو سمو علم صاحبها، تستزيد من شرف صحبة الصديقين والشهداء، في مقام أمين، أخذتها التقوى إلى جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر وقد خلَّف عطاء بمكة زملاء وأصحاب وتلاميذ حفظوا له فضله فأثنوا عليه وجاء من بعدهم الأئمة المجتهدون يثنون عليه وعلى علمه

(١) أخرجه أحمد ١/١٨، والترمذي ٢١٦٦ في الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة.

وهذا الإمام الشيخ أحمد بن حنبل يقول:

العلم خزائن يقسمه الله تعالى لمن أحب، لو كان يخص بالعلم أحداً، لكان بيت النبي ﷺ أولى.

وكان عطاء بن أبي رباح حبشياً.

رحم الله رجلاً جمع الديانة والرواية في شخصه، فساد زاهداً وحكم عافّاً متاع الدنيا. ويحضرنا الآن قوله الذي بدأنا به سيرته:

«يا بن أخي من كان قبلكم، كانوا يكرهون الفضول في الكلام وكانوا يعدون فضوله، ما عدا كتاب الله عزَّ وجل أن تقرأه أو تأمر بمعروف. أو تنهى عن المنكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد منها لتنكرون قول الله: ـ ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين﴾.

أما يستحي أحدكم لو نشرت عليه صحيفته، التي أملى صدر نهاره، وكان أكثر ما فيها ليس في أمر دينه ودنياه؟.

نسأل الله أن تبيض صحائفنا يوم العرض العظيم، رحمة الله ورضوان الله على عطاء شيخ مكة وفقيه المسلمين.



رَجَاءُ بنُ حَيْوَة ﷺ



ـ ١ ـ

مدخل

قال رجاء بن حيوة:

«من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقُه؛ ومن لَمْ يَرْضَ من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطُهُ، ومن عاتب إخوانِهِ على كُلِّ ذنبٍ كَثُر عدوُّه»[١].

كان رجاء بن حيوة رجلاً كبير المنزلة عِنْدَ خلفاء بني أمية وعلى الأخص سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، ولقد أجرى الله على يديه الخيرات فعاش المسلمون السنوات التي كان فيها رجاء بن حيوة قاضياً من قضاة الشام فعم الخير والعدل شؤون المسلمين وبلادهم، حتى إن أُمراء المؤمنين كانوا يدفعونه لدفع الضعيف إلى أبوابهم، ويمدون إليه أيديهم لجعل النصح موضع التنفيذ، والقضاء سيِّداً بين رعية المسلمين التي كانت تُحْكَمُ على أيديهم، فكان عصرُهُ عصر فقيه وقاض من قضاة المسلمين يقال له عصر خير وعدل تمتعت فيه الرعية بعدل السلطان، واستمتع السلطان وقاضيه برضوان الله عليهم، ورضى الرعية عن شيخها وأميرها.

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ١ ص ١١٨.

وقد ترك رجاء بن حيوة قُرْبه من السلطان فترة من الزمن، فجاءَ من يسأل رجاء ويقول: يـا رجـاء، كنت تأتي السلطان فتركتهم!!.

فقال رجاء: يـكفيني الذي أدعُهم له[1].

ومما حبا الله به فقيهنا وشيخنا رجاء حُبّ الناس له فهذا قائد من قادة جيش المسلمين يثني على رجاء فيقول: برجاء بن حيوة وبأمثالِه نُنْصَر[2] هذا هو إطار ندخل به على تفاصيل السيرة والتي هي مشاهد ولقطات جليلة. شهد بها التاريخ وغاب عندما غاب ضوء القلم عنهـا، هل صح لنا أن نسلط ضوءاً باهراً على صفحاتها الجميلة ـ ذلك ما قصدناه ـ والله من وراء القصد.

ـ ٢ ـ
من هو رجاء؟

نسبه:

رجاء بن حيوة بـن جَرْول، الإمام القدوة، الوزير العادل، أبو نصر الكندي الأزدي، الفلسطيني[3].

وُلِدَ رجاء بن حيوة في بيسان، من أرض فلسطين، وكان

(١) الحلية جـ ٥ ص ١٧١.
(٢) تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ١١٧ والقائد هو مسْلَمة بن عبد الملك.
(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٥٥٧ ترجمة رقم ٢٢٠.

ذلك في أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وينتمي رجاء إلى قبيلة كندة العربية، وقد شهد لرجال قبيلته الأشداء قادة المسلمين منهم مَسْلَمة بن عبد الملك الذي قال:

«إنَّ في كندة رجالاً يُنزِلُ الله بهم الغيث، ويَنْصُر بهم على الأعداء أحدهم رجاء بن حيوة» رضوان الله عليه.

كان رجاء من جلة التـابعين، لأنه نشأ من أوساط قبيلة كندة في طاعة الله وتـربى عليها منذ سنوات عمره الأولى، فكان لطاعته حب من الله عزَّ وجل فبها أحبه الناس أجمعون، فأقبل يطلب العلم والعون فيه، فوجد من ينير قلبه بالإيمان، ومن يُغذي عقله بالعلم والدين، فحفِظ كتاب الله واطلع على سنة رسوله ﷺ فاستنار قلبه بها، وصار صاحب علم جليل، وحكمة بالغة، وذكاء نافذ وحفيظة واعية تقيس الأمور بنفاذ البصيرة وحكمتها، وقد تعلّم من أصحاب رسول الله ﷺ، فكان عِلْمُهُ ثقةً ومن هؤلاء الصحابة الأجلّاء معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عمرو بن العاص. وأصبح رجاء راجحَ الـرأي، عالماً بأمور دينـه، شيخ علم من شيوخ عـصره وشيخ مكانه وسلطانه يقربه أمراء المؤمنين بدءاً من عبد الملك بن مروان إلى عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليهم أجمعين فكان وزيراً لـهم وصاحب مشورة عليهم.

ـ ٣ ـ

الوزير العابد العادل

أحب أهل الشام وعلماؤها رجاء حباً كبيراً وصار بينهم شيخاً وقوراً مشهوداً له بالعلم والفضل فقد قال عنه رجل معاصر له يسمى رجاء بن أبي سلمة:

ما من رجل من أهل الشام أحبُّ إليّ أن أقتدي به من رجاء بن حَيْوَةَ وكان لرجاء منهجان في وعوته، منهج يتصل بعلمه، وطريقته في تناول الرواية نستوضحه من خلال هذه الرواية التي ذكرها ابن عون أحد التابعين في عصره فقد قال:

١ ـ كان إبراهيم النخعي وهو أحد العلماء والقضاة.

والشعبي وهو أحد العلماء والقضاة.

والحسن البصري، يأتون بالحديث على المعاني.

وكان القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أحد فقهاء المدينة السبعة، وابن سيرين قاضي الكوفة لستين عاماً، ورجاء بن حيوة يعيدون الحديث على حروفه[١].

هذا بالنسبة للرواية والحديث والعلم. أما بالنسبة لمنهجه العام في حياته فقد كان كما يلي:

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤٥٤.

٢ ـ قال رجاء ناصحاً أصحابه:

ما أحسن الإسلام يـزينة الإيمان..

وما أحسن الإيمان يـزينة التقى...

وما أحسن التقى يـزينة العلم...

وما أحسن العلم يـزينة العمل...

وما أحسن العمل يزينة الرِّفق...

من خلال هذين المنهجين انطلق رجاء يدير كل أمر يعرض عليه سواء من الرعية أو من السلطان بحكمةٍ بالغة، دون النظر لما بأيدي الناس فقد كان غـنياً بقناعته، راضياً بنفسه العزيزة الأبية.

ولقد وهبه الله حكمةً فأفاض عليه بالخير الكثير، وجعل له من يَنْصحه ويهديه إلى سواء السبيل فها هو رجاء يقف على باب سليمان بن عبد الملك خليفة المسلمين وإذا برجل يأتيه، ولنترك رجاء بن حيوة ذاته يروي لنا هذه القصة:

«كُنْتُ واقفاً على باب سليمان إذ أتاني آتٍ لم أرَهُ من قبل ولا بعد فقـال: يـا رجاء، إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك (يقصد سليمان بن عبد الملك) ومن قربه الهلاك، فعليك بالمعروف، وعون الضعيف..!!.

يـا رجاء، من كانت له منزلةٌ من سلطان، فرفع حاجةَ

ضعيف لا يستطيع رفعَها، لقي الله وقد شدَّ قدميه للحساب بين يديه»[1].

وبعد أن فرغ الرجل من حديثه إذا سليمان ينادي قائلاً: يا رجاء، فانطلق رجاء يسمع أمير المؤمنين، وبعد أن فرغ منه عاد يبحث عن الرجل الذي نصحه بهذا فلم يجده.

من ذلك فطن رجاء لمدى المسؤولية الملقاة على عاتقه، فراح يبذل النصح لبني أمية ولكل من استوزرَهُ من حكامهم، فكان وزيراً عادلاً ومستشاراً لا يخشى في الحق لومةَ لائم. ومن ذلك أنه كان في مجلس عبد الملك بن مروان الذي طالما كان يقول له: يا رجاء علمني من علمك، وفي هذا المجلس جاء رجل فسلَّم ووقف بين يدي عبد الملك وجعل الرجل يذكر صاحباً له بسوء ويقول لعبد الملك إنه لا يضمر خيراً لبني أُميةَ وأنه يشايع عبدالله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان على الخلافة، وينتصر له ـ مما جعل الخليفة يثور ويغضب ويقول: من يأتيني به حتى أفعل فيه كذا وكذا.

وجيء بالرجل أمام عبد الملك بن مروان، فلما مَثُلَ أمامه هَمَّ عبد الملك بأن يفتك بالرجل ولكن رجاء بن حيوة وقف قائلاً:

---

(١) الحلية لأبي نعيم جـ ٥ ص ١٧١، سير أعلام النبلاء، جـ ٤ ص ٥٦٠.

«على رسلك يا أمير المؤمنين، إن الله عزَّ وجَلَّ قد صنع لك ما تحبُّه من القدرة فاصنع لله ما يحب من العفو».

فهدأ الخليفة وتأمل كلام رجاء بن حيوة ـ ثم عفا عن الرجل، وأطلق سراحه.

ولقد كان لرجاء بن حيوة دور عظيم في اختيار عمر بن عبد العزيز خليفة للمسلمين في حين أنه أي عمر بن عبد العزيز كان زاهداً في هذا المنصب، وسنسمع القصة ذاتها من رجاء.

يقول رجاء بن حيوة:

لما كان أول يوم جُمُعَةٍ من شهر صفر سنة تسع وتسعين كُنَّا مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بدابق، وكان قد أرسل جيشاً كبيراً إلى القسطنطينية بقيادة أخيه مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، ومعه طائفة كبيرةٌ من آل بيته.

وقد أقسم عَلىٰ أَلَّا يترك مرج دابـق «وهـي قرية سورية قرب حلب كان ينزلها بنو أمية إذا غزوا بلاد الروم».

ومن هذه القرية ثَقُلَ المرض على سليمان بن عبد الملك، فدخلت عليه ذات مرة فوجدته يكتب كتاباً فقلت: ما تَصْنَعُ يا أميرَ المؤمنين؟.

فقال: أكتُبُ كتاباً أعهد فيه إلى ابني أيوب.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ما يبرىء ذمتك عند ربك أن

تستخلف على الناس الرجل الصالح»[1].

وأن ابنك يا أمير المؤمنين غلام صغير لم يبلغ الحلم بعد.

فتراجع سليمان بن عبد الملك وقال: إنه كتاب كتبته، وأنا أريد أن أستخير الله فيه ولم أعزم عليه، ثم مزَّق سليمان الكتاب.

وبعدها بأيام دعاني سليمان وقال:

ما رأيك في ولدي داود يا أبا المقدام؟.

فقلت: هو غائب في القسطنطينية وأنت لا تدري الآن أَحَيٌّ أم ميتٌ.

فقال: فمن ترى إذن يا رجاءُ؟.

فقلت: الرأي لك يا أمير المؤمنين.

وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكرهم فأستبعدهم واحداً تلو الآخر حتى أصل إلى عمر بن عبد العزيز.

فقال: كيف ترى عمر بن عبد العزيز؟.

فقلت: ما علمته والله إلَّا فاضِلاً، كاملاً، عاقِلاً، دَيِّناً..

فقال: صدقت ـ إنه والله ـ لكذلك.

ولكنني إن وليته وأغفلت أولاد عبد الملك لتكونن فتنة، ولا يتركونه يَلي عليهم أبداً.

---

(١) الرواية من تاريخ ابن عساكر، وطبقات ابن سعد جـ ٥/٣٣٩..

فقلت: أشرك معه واحداً من إخوتك يا أمير المؤمنين واجعله بعده.

فقال سليمان: أصبتَ يا رجاء، فإن ذلك مما يُسَكِّنُهم، ويجعلهم يرضونه.

ثم أخذ الكتاب وكتب بيده.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين لِعُمَرَ بن عبد العزيز، إني ولَّيْتُه الخلافة من بعدي وجعلتها من بعده ليزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع الطامعون فيكم»[1].

ثم ختم سليمان بن عبد الملك الكتاب وأعطاه لرجاء بن حيوة.

ثم أرسل من يحضر صاحب الشرطة، ولما مَثُلَ بين يديه قال له:

ادع لي آل بيتي فليجتمعوا، وأعلمهم أن الكتاب الذي من يد رجاء بن حيوة هو كتابي، ومُرْهُم بأن يبايعوا لمن فيه.

ثم قال لهم رجاء عندما اجتمعوا:

«هذا كتاب أمير المؤمنين قد عهد فيه للخليفة من بَعدِه. وقد أمر في أنْ آخُذَ مِنْكُمُ البيعة لمن وَلَّاه».

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٤٠٧، تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٣٦٥ - ٣٧٠.

عند ذلك قالوا جميعاً: سمعاً وطاعةً لأمر أمير المؤمنين، وَطَاعةً لخليفته من بعده ثم دخلوا على أمير المؤمنين فسلموا عليه.

ثم بادرهم قائلاً: إن هـذا الكتاب الذي في يـد رجاء بن حيوة هو كتابي وفي عَهْدي للخليفة من بعدي، فاسمعوا وأطيعوا لمن وليت وبايعوا لمن سمَّيت في هذا الكتاب».

فبايعوا جميعاً على مَنْ في كتاب أمير المؤمنين دون أن يعلموا مَنْ يكون في الكتاب وأمسك رجاء بن حيوة على سر أمير المؤمنين، ولم يبلغ أحداً حتى وافت المنية سليمان بن عبد الملك، ثم جمع أهل بيت أمير المؤمنين جميعاً في مسجد القرية التي مات فيها وهي قرية دابق قرب حلب كما ذكرنا.

فقال رجـاء: بـايعوا لمن في كتاب أمير المؤمنين؟.

فقـالوا: قـد بايعنا مَرَّةً ونبايع أُخْرَى؟ كيف ذلك؟.

فقال رجـاء: هـذا أمر أمير المؤمنين.

بايعوا على ما أمر به، ولمن سمى في كتابه هذا، فبايعوا رجلاً رجلاً. ثم صارحهم رجاء بمَنْ يكون الخليفة بأن قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فوقف عند ذلـك هشام بن عبد الملك ـ شقيق سليمان ـ وقال: لا نبايعه أبداً فغضب رجاء وقال: والله لتبايع وإلّا ضربنا عنقك.

فقام خائفاً ينظر إلى رجاء فبايع عمر بن عبد العزيز، وهو يردد: إنَّا لله وإنا إليه راجعون.

وقبل عمر بن عبد العزيز البيعة وهو على كره من المنصب، ولكنه أشاع العدل في الدنيا، وأعاد للمسلمين ذكرياتهم عن أيام خلافة جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخذ منه الكثير في الخلافة.

هكذا كان رجاء وزيراً عادلاً، وقاضياً يتَّسم بالحكمة والحزم ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً، فقد كان حكيماً عندما شارك بالرأي والمشورة الصحيحة الخالصة لوجه الله سبحانه عزَّ وجل وكان حازماً عندما ثار هشام لأن شقيقه أخرج الخلافة من أبناء عبد الملك فلم يبالِ الوزير العادل بمن يتكلم معه، وإنما هدده بقطع عنقه إذا لم يلتزم بما جاء في كتاب أمير المؤمنين.

وكان رجاء أميناً على السر عندما جاءه عمر بن عبد العزيز يقول: أخشى أن يكون أمير المؤمنين قد أسند إليّ من أمر الخلافة شيئاً، فإن كان ذلك فأخبرني حتى أطلب من أمير المؤمنين أن يعفيني قبل فوات الأوان، فقال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً مما سألت عنه.

فتركه عمر غاضباً برغم ما كان بينهما من ودٍ ومحبة توثقت أواصرها من قبل أن يكون رجاء وزيراً لبني أُمية. هكذا كان الوزير العادل العابد يؤدي دوره على أكمل وجه.

ومرت سنوات طويلة كان رجاء بن حيوة رجلاً أساسياً في مجلس شورى عمر بن عبد العزيز رغم أن عمر ما كان يترك

عالماً من أمصار المسلمين إلا أرسل يقول له أرشدني وانصحني بدءاً من فقهاء المدينة السبعة إلى عطاء في مكة وغيرهم وغيرهم إلا أن لرجاء مكاناً في نفس أمير المؤمنين، فلما مات عمر وتولى هشام بن عبد الملك وكان في نفسه شيء من رجاء بن حيوة من يوم استخلاف عمر لأخيه سليمان، فقد أمر بقطع راتب ومعاش شهري كان قد رتَّبه له أخوه يزيد بن عبد الملك في خلافته، فلما مات يزيد وجاء ابنه هشام أمر بقطعها «وفي اليوم الذي أمر فيه بذلك رأى هشام أباه يزيد في النوم، فعاتبه على قطع معاش أجراه لرجاء، فأعاده إليه ثانيةً»[1].

كان رحمه الله رجلاً صريحاً يقول الحق فها هو جالس في المسجد بعد صلاة الصبح فلمح رجلاً ينام.. فقال له: يا هذا انتبه حتى لا يظنون أنَّ ذا عن سهر.

بلغ حداً كبيراً من العلم والبلاغة فها هو رجل يعاتبه ويريد أن ينال منه ففاجأه قائلاً: إنك كنت تأتي السلطان يا رجاء فلِمَ تركتهم.

فقال في ذكاء بارع: «يكفيني الذي أدعهم له»[2].

وكان رجاء وزيراً فطناً كيساً فها هو في العام الواحد

---

(١) الرواية في سير أعلام النبلاء، جـ ٤ ص ٥٥٩، تاريخ ابن عساكر جـ ٦/١١٩.

(٢) الحلية جـ ٥ ص ١٧١.

والتسعين يشارك أحد خلفاء بني أمية وهو الوليد بن عبد الملك الحج، فلما وصلوا إلى المدينة وكان عليها عمر بن عبد العزيز والياً، بينما سعيد بن المسيب أحد الفقهاء السبعة في المدينة جالس في المسجد يحدث الناس، وقد فكر الخليفة أن يزور الحرم النبوي ليرى إذا كان من الضروري أن يجري تجديداً وإصلاحاً فيه، ولما كان من الضروري إخراج الناس حتى يرى الخليفة المسجد عن قرب، فقد أُمر الناس في ذلك اليوم بإفساح الطريق لأمير المؤمنين لينظر في تجديد الحرم النبوي فخرج الناس إلا سعيد بن المسيب، فلم يقدر الحراس على إخراجه.

وحاول والي المدينة عمر بن عبد العزيز أن يقنعه بالحسنى ليترك المسجد فأبى وقال: لا أغادر المسجد إلا في وقت مغادرتي المعتاد كل يوم.

فقال له الحراس بعد ذلك: إذن فقم وسلّم على أمير المؤمنين.

فقال سعيد: إنما جئت للمسجد لأقومَ لرب العالمين.

ودخل الوليد بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة، وجعلا يشاغلان أمير المؤمنين بعيداً عن مكان جلوس سعيد بن المسيب خوفاً عليه من البطش بعالم المدينة.

وعند ذلك سألهم أمير المؤمنين: من ذلك الشيخ، أليس هو سعيد بن المسيب؟.

قالا: نعم يا أمير المؤمنين.

وجعلا يصفان له من أخلاق ابن المسيب، وعلمه، وفضله.

فما كان من أمير المؤمنين إلا أن قصد سعيد بن المسيب وحياهُ قائلاً: كيف حال الشيخ؟.

فقال سعيد بن المسيب: بنعمة من الله، فله الحمد والشكر، وكيف أمير المؤمنين وفَّقه الله لما يحبه ويرضاه.

عند ذلك شكر الوليد، وانصرف يردد:

يا رجاء هذا بقية الناس.

يا عمر هذا بقية سَلفِ هذه الأمة.

ـ ٤ ـ

وفاته

رحم الله رجاء بن حيوة فقد مات في العام الثاني عشر بعد المائة، وخرجت جموع المسلمين رعيةً وحكاماً في وداع قاضيهم وشيخهم رضوان الله عليه.

الشَّعْبِيُّ



العلماء أربعة: سعيدُ بنُ المُسيِّب في المدينة
وعامِرُ الشَّعْبيُّ في الكوفة
والحسن البصري في البصرة
ومكحولُ في الشام.

ابن شهاب الزهري

نحن بصدد سيرة تابعي جليل جمع في نفسه العلم والحلم والتواضع والروح الطيبة. فعلمه شهد له شيخ من شيوخ عصره، وحلمه يتمثل في واقعة رائعة عندما شتمه رجلُ أقبح الشتائم، وأسمعه أقذَعَ الكلامِ فما كان منه إلا أنْ قال له:

إنْ كنت صادقاً فيما تَرْميني به غفر اللهُ لي، وإنْ كُنْت كاذباً غفر الله لك.

وكان الشعبي متواضعاً تواضع العـلماء، ففي ذات مرة خاطَبَهُ أحد الناس قائلاً:

ـ أجبني أيها الفقيه العالم.

فقال عامر: ويحـك، لا تبالغ في مدحنا وإكبارنا بما ليس فينا، فالفقيه مَنْ تَوَرَّع عن محارم اللهِ، والعالم من خشي الله، وأين نحن من ذلك؟!.

ولنترك روحه الطيبة وفكاهاته الجميلة تعبِّر عن نفسها في هذه الواقعة الطريفة، فقد دَخَلَ عليه رَجُلٌ وهو جالس مع امرأتِه فقال: أيُّكما الشَّعْبيُّ؟

فقال: هذه، وأشار إلى امْرَأتِه.

هذه ثلاثة مواقف تتحدث عن ثلاث صفات صدرنا بها حديثنا عن علمه وحلمه وتواضعه.

وتأتي الرابعة عن روحه الطيبة العذبة، فلم يترك الفكاهة عندما لاحت له، فأدَّاها بذكاء جميل عذب.

بعد هذه الكلمة السريعة، والإطار الشامل، للصورة الجليلة صورة عامر الشعبي.

حسبي أننا الآن بحاجة إلى الإبحار في سيرة هذا التابعي الجليل، ننهل من طيب سيرته ونرتشف من نهر عِلمه، تحفُّ بنا سيرة تابعي طاهر، فقيه عالم، فإلى سيرته.

ـ ١ ـ
بطاقة تعريف

عامر بن شراحبيل بن عبد بن ذي كِبَار، وذو كبار مكانها اليمن.

وهو الإمام، علاَّمة عصرِهِ، يُكنى أبو عمرو الهمداني،

ومشهور بالشعبي. كانت أمه من سبي جلولاء[1]، وهي الواقعة المشهورة مكانها بلاد فارس، وزمانها سنة (١٦) هجرية، وموضعها اليوم في العراق وتسمى السعدية[2].

ولد عامر الشعبي لست سنواتٍ خَلَتْ من خلافة الفاروق عمر، رضوان الله عليه، وقد كان نحيل الجسم، صغير الجسد، ذلك لأَنَّ أخاه زاحمه على رحم أمه، مما عطَّلَ نموه في الجسم، لكنه أصبح فيما بعد صاحِبَ ذكاء متوقد، وذاكرة حافظة، وفهم يجمع شتات العلم، وقوة إبداع جعلته متميزاً في عصره الذي عاشه؛ إنه عصر يُعَدُّ خير العصور، وقرن يُعَدُّ خير القرون.

هذه بطاقة تعريف صغيرة، لتابعي جليل، وشيخ فاضل؛ إنه عامر الشعبي، فلنكمل الحديث.

- ٢ -
نشأتــه وعلمــه

كان الشعبي توأماً ضئيلاً نحيف الجسم كما ذكرنا، أقام في المدينة ثمانية أشهر، وسمع من ابن عمر، وتعلم الحساب من رجل يدعى الحارث بن الأعور[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٢٩٤، ٢٩٥، ترجمة الشعبي ١١٣.
(٢) معجم البلدان جـ ١ص ٨٧.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ٢٩٧.

وقد أدرك عامر الشعبي ـ رضوان الله عليه ـ خمس مئةٍ من أصحاب النبي ﷺ، وروى عن الصحابة الكرام؛ منهم علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو هريرة، والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وغيرهم مِمَّن عاصرهم.

وقد سمع الشعبي من كثير من الصحابة، حتى قال أحد معاصريه في ذلك:

سمع الشعبيُّ من ثمانيةٍ وأربعين من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يكاد يرسل إلاّ صحيحاً[1].

وقد وعى الشعبي كل ما سمع بفضل ما حباه الله من نعمة الذكاء، والذاكرة الحافظة الواعية، حتى قال في هذا الموضع يصف منهجه في الحفظ والفهم:

ما كتبتُ سوداءَ من بيضاءَ إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته، ولا أحببت أن يعيده عليًّ[2].

ولم يقف الشعبي عند هذا الحدِّ من العلم والوصف لعلمه، وإنما أضاف يقول: ما سمعتُ منذ عشرين سنة رجلاً يُحدِّث

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠١ والرواية عن أحمد بن عبد الله العجلي.
(٢) طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٤٩.

بحديث إلا أنا أعلم به منه، ولقد نسيت من العلم ما لو حَفِظَهُ رجلٌ، لكان بِهِ عالماً[1].

وقد ساعدته ذاكرته على أن يقول أيضاً: ما أَرْوِي شيئاً أقلَّ مِنَ الشِّعْر، ولو شئتم لأنشدتُكُم شهراً لا أُعيد[2].

وقد كان عامر مولَعاً بالدرس والعلم، محباً للمعرفة، يجتهد في سبيلهما قدر جَهْدِه، ويذلل كل صعاب تواجه حبه للعلم، وقد عبَّر عن هذه الرغبة بقوله:

«لو أَن رَجُلاً سافَرَ من أَقْصَىٰ الشام إلى أقصىٖ اليَمَنِ فحفظ كَلِمةً واحدةً تَنْفَعُه فيما يستقبِلُ من عُمُرِه لرأيتُ أن سفره لم يضع».

وقد ساعدت ذاكرة الشعبي الحافظة على وعي كثير من الآثار في كثير من المسائل التي عُرضت على الصحابة الأجلَّاء، لذلك عُرِفَ بأنه صاحب آثار.

وعلى الرغم من كل ما علمه وحفظه؛ فإنه تمنى ذات يوم أمنية غريبة قال فيها: «ليتني لم أكن علمت من ذا العلم شيئاً»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٠١.
(٢) تاريخ ابن عساكر ص ١٦ ترجمة ١٣٨.
(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٠٣ ترجمة ١٣٨.

ولو عرفنا سر الأمنية لقدّرنا موقف الشعبي حق قدره عندما يقول معللاً الأسباب:

«إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقيه من إذا عَلِمَ عَمِل»[1].

هنا، ومن هذه الكلمات يقدم لنا الشعبي درساً عظيماً حول مسؤولية العالم والمحدث الذي يتصدّر للبحث والدرس في دينه، فإن العمل بالعلم عبادة.

وإن العلم حُجَّةٌ على العالم أمام الله، فينبغي أن يعمل به، ويُنبّه الجاهل، فيأمرهُ وينهاه، وقد خشي الشعبي على نفسه مَظنَّةَ أن لا يخلص فيه، وأن يفتخر به ويماري به لينال رئاسةً ودنيا فانية وسلطاناً زائفاً، وقد عبَّر تواضعه على عكس هذا المعنى عندما خجل ذات يوم من رجل لقَّبه بلقب العالم وقال له: أجبني أيها الفقيه العالم، فقال: ويحك، لا تُطْرِنا بما لَيْسَ فينا.

ثم عرَّف الفقيهَ والعالِمَ بقوله: الفقيه من تورَّع عن محارِم الله، والعالم من خشيَ الله، وأين نحن من ذلكَ؟!.

وقد جاء رجلٌ ذات يوم يسأله عن مسألة فأجابه قائلاً:

قال عمر في هذا الأمر كذا وكذا..

وقال علي كذا وكذا.

---

(١) حلية الأولياء جـ ٤ ص ٣١١.

فبادره السائل بسؤال آخر قال فيه: وأنت ماذا تقول يا أبا عمرو؟.

فابتسم - وقد أخذه الحياء والخجل - وقال:

«يا أخي ما تصنع بقولي بعد أن سمعت مقالة عمر وعلي».

هكذا كرَّم الصحابة الأجلاء، وانحنى لعلمهم وفتواهم، وتواضع عن غرور العلم والعلماء.

وبعد فقد بلغ عامر الشعبي مبلغاً كبيراً من العلم؛ حتى إنه كانت تعقد له حَلْقَةٌ في جامع الكوفة ويجتمع الناس حوله، في الوقت الذي كان يعيش فيه أصحاب رسول الله بين الناس، حتى إن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرَّ بالشعبي وهو يقرأ المغازي على مستمعيه من النَّاس؛ فقال ابن عمر: «كأنَّ هذا كان شاهِداً معنا، ولهو أحفظُ لها منِّي وأعلم»[1].

ويصف ابن سيرين حلقة الشعبي في الكوفة فيقول: «قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة، والصحابة يومئذ كثير»[2].

وقد أثنى العلماء ممن عاصروا الشعبي على علمه وفقهه، نعدّد منها هذه الآراء:

يقول عاصم بن سليمان أحد معاصريه: «ما رأيت أحداً

(١) تاريخ ابن عساكر ج ١٦ ص ١٦٤: «عاصم: عائذ» ترجمة ١٣٨.
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣١٢.

أعلم بحديث أهل الكوفة والبصـرة والحجاز والآفـاق من الشعبي»[1].

ـ ٣ ـ
مكانـة الشعبي العلميـة

ومِمَّا يدلُّ على مكانة الشعبي العلمية شواهد ومواقف عدة نسوق منها وصفاً لمجلسه ومريديه، فيعدّل أبو يوسف أحد فقهاء عصره: ما رأيت من أهل زمان أغلظ رقاباً ولا أرق ثياباً منهم ـ ممن كانوا يجالسون الشعبي ـ وكان الرجـل فـي ذلك الوقت من هؤلاء النـاس يخـرج إلى السوق في الحاجة، فَيمرُّ بالمسجد فيقول أدخل فأصلي ركعتين ثم أخرج فـأقضي حاجتي، فيرى الشعبي ـ وقد جَلَسَ ـ يحدث فيجلس إليه حتى تفوته حاجته، وينصرف السوقُ ومَنْ فيه من التجار وينفضُّ البيع والشراء.

وكان هذا الرجل الراوي لهذه الرواية كلما لقي الشعبي يمازحه ويقول:

«أي مبـطل الحـاجات! نصف عقلك مع أخيك»[2].

وقد روى الشعبي ما عبَّر عن سعة علمه ومكانته فقال: أتاني رجلان يتفاخران، أحدهما من بني عامر والآخَرُ من

---

(١) الحلية جـ ٤ ص ٣١٠.

(٢) الرواية جاءت في المعرفة والتاريخ جـ ٤ ص ٥٩٥ ت د. أكرم ضياء العمري. ط ـ الرسالة. بيروت.

بَني أَسَدٍ، وقد غلب العامريُّ صاحِبَه، وعَلَا عَلَيْه، وأَخَذَ من ثوبِه، وجَعَلَ يَجُرُّه نَحْوي جَرًّا، والأسَدِيُّ مَخْذُولٌ أمامَه يقولُ له: دعني، اتركني.

وهو يقول لَهُ:

والله لا أَدَعُك حتى يحكم الشعبي لي عَلَيْكَ، فالتفتُّ إلى العامِرِيِّ، وقلت لَهُ: دعْ صاحِبَك حتى أحكُم بينكما، ثم نظرتَ إلى الأَسَدِيِّ وقلتُ: ما لي أراك تَتَخاذَلُ له، وتضعف أمامه وتفشل؟ ولقد كانت لكم مفاخر ست لم تكن لأحدٍ من العربِ أولها[1]: ـ أنَّه كان منكم امرأةٌ خطبها سَيِّدُ الخَلْقِ محمدُ بن عبد الله، فَزَوَّجه الله إياها من فوق سبع سماوات[2]، وكان السفير بينهما جبريل عليه السلام إنها أم المؤمنين زينب بنت جحش، فكانت هذِهِ المأثرة لقومِك، ولم تكن لأَحدٍ من العرب غيرِكم.

والثانية: أنه كان منكم رَجُلٌ من أهل الجنَّة يمشي على الأرض هو عكاشة بن محصن[3]. وكانت هذه لكم يا بني أَسَدٍ ولم تكن لِسواكُم من النَّاسِ.

---

(١) انظر صور من حياة التابعين د. عبد الرحمن الباشا الكتاب الثاني ص ١٤٤ وما بعدها.

(٢) يقصد بها السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين وزوج الرسول ﷺ ونزلت فيها الآيات: ﴿ فلما قضى منها زيد وطراً زوَّجناكها ﴾.

(٣) عكاشة بن محصن: صحابي بطل استشهد في حروب الردَّة.

والثالثة: أنَّ أوَّلَ لواءٍ في الإسلام عقد لرجلٍ منكم هو عبد الله بن جحش[1].

والرابعة: أن أولَ مغنمٍ قُسِمَ في الإسلام كان مغنمه.

والخامسة: أنَّ أول من بايع بيعة الرضوان[2] كان منكم، فقد جاء صاحبكم أبو سنان بن وَهْبٍ إلى رسول الله ﷺ وقال:

ـ يا رسول الله، ابسُطْ يدكَ أبايِعكَ.

قال عليه السلام: على ماذا؟.

قال الرجل: على ما في نفسي.

قال عليه السلام: وما في نفسك؟.

قال أبو سنان: فتحٌ أو شهادة.

قال عليه السلام: نعم. فبايعه الناسُ على بيعة ابن سنان.

والسادسة: أنَّ قومَكَ بني أسدٍ كانوا سُبُعَ المهاجرين ($\frac{1}{7}$) يومَ بدْرٍ.

عند ذلك أصابت الدهشة العامري مما أورد الشعبي من شواهد ومفاخر لغريمه وخَصْمه، وحسبي أنه قال في نفسه ربما لو كنت صاحب حقٍّ لأورد لي مآثر قومي كما فعل مع خصمي، وانصرف الرجل.. وقد عُقِدَ لسانه.

---

(١) كان قائد إحدى سرايا الرسول وسميت بسرية عبد الله بن جحش، في السير، انظر: السيرة الحلية، وسيرة ابن هشام وغيرها.

(٢) وكانت قد نزلت فيها الآية الكريمة: ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾، وكانت في العام السادس الهجري.

ـ ٤ ـ

محنته مع الحجاج

كان الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق، وقد اشتهر بظلمه بين الناس وقسوته وجبروته حتى إنه كان يؤخر الصلاة ويجمعها في الحضر، وقد ذهب ولاة ذلك العصر هذا المذهب مما جعل بعض الناس من العلماء يثورون عليه ويغضبون من ظُلمه، وقد تذكروا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو ذر الغفاري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها أو يميتون الصلاة عن وقتها؟».

قال أبو ذر: قلت: فما تأمرني؟.

قال عليه السلام: «صلِّ الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم فصلِّ فإنها لك نافلة»[١].

وقد سمي هؤلاء الناس الذين غضبوا على الحجاج باسم القراء، وتزعَّمهم عبد الرحمن بـن الأشعث بن قيس الكندي، وكان رضوان الله عليه شريفاً مطاعاً، فهوحفيـد أبي بكر الصديق، فجدَّته أُخْت الصديق رضي الله عنه، فاجتمع حوله مائة ألف أو يزيدون، وضاقت على الحجاج الدنيا، وكاد أن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٤٨)، وأبو داود (٢٤٣٦)، والترمذي (١٧٦)، وابن ماجه (١٢٥٦).

يزول ملكُه، حتى إنهم هزموه في عدة مواقع، ولكنه قاوم حتى انتصر على الأشعث، وقتل الكثير من أتباعه[1]، وكان من بين هؤلاء الأتباع الشعبي، ومن هنا بدأت محنته مع الحجاج، ولنترك الشعبي نفسه يحدثنا عن محنته هذه فيقول:

لمَّا قدِم الحجَّاج سألني عن أشياء من العلم فوجدني بها عارفاً، فجعلني عريفاً على قومي الشعبين - أي رئيساً عليهم - وفرض لي أجراً لذلك.

فلم أزل عنده بأحسن منزلة، حتى كان شأن عبد الرحمن بن الأشعث، فأتاني قراء أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنَّك زعيم القُرَّاء، فلم يزالوا حتى خرجتُ معهم[2].

وانضم عامر الشعبي إلى جماعة الأشعث من القرَّاء، ويكمِل أحداث المحنة فيقول:

فقمت بين الصفين أذكر الحجاجَ وأعيبُه بأشياء فبلغني أنَّه قال: ألا تعجبون من هذا! أما لئن أمكنني الله منه، لأجعلن الدنيا عليه أضيق من مَسْك جمل[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٠٦.
(٢) تاريخ ابن عساكر ترجمة ١٣٨ جـ ١٦ ص ١٣٨.
(٣) المصدر السابق وسير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٠٤.

وبهذا أصبح عامر الشعبي مطارداً مطلوباً من الحجاج، وقد أصبحت حياته مهددة، واختفى الشعبي عن أعين الحجاج ورجاله، ويستطرد في قصة المحنة فيقول:

«فما لبثنا أن هزمنا، فجئت إلى بيتي، وأغلقتُ عليَّ، فمكَثْتُ تِسعة أشهر، فَندَبَ الناسَ لخُراسان، فقام قتيبة بن مسلم، فقال: «أنا لها»، فولاه الحجاج قيادة فتح خراسان»[1].

فنادى منادي قتيبة بن مسلم وقال: من لحق بعسكر قتيبة فهو آمن.

عند ذلك انتهز عامر الفرصة ليخرج معهم فقال: فاشترى خادمٌ لي حماراً، وزوَّدني ـ أي قدَّم له الزاد اللازم للخروج في الغزو ثم خرجتُ فكنت في العسكر، فلم أزل معه حتى أتينا «فرغانة» وهي مدينة واسعة فيما وراء النهر، على يمين القاصد لبلاد الترك[2]. وجلس قتيبة ذات يوم وقد أصابته حيرة عندما رغب في الكتابة للحجاج عن أخباره فنظرتُ إليه فقلت: أيُّها الأمير عندي علم وأعلم ما تريد!!.

فقال قتيبة بن مسلم: ومن أنت؟

(١) المصدر السابق.
(٢) معجم البلدان لياقوت.

قلت: أعيذك بالله ألاّ تسأل عن ذاك، فعرف أني مِمَّن يُخْفي نفسه، فدعا بكتاب.

فقال: اكتبْ نُسخةً.

قلت: لا تحتاج إلى ذلك فجعلت أُملِي عليه وهو ينظرُ حتَّى فرغَ من كتاب الفتح ثم قال عامر الشعبي: فأكرمني وأرسل إليّ بقطعة من حرير، وكنت عنده في أحسن منزلة[1].

ومرت الأيام بعد ذلك، ووصلت الرسالة للحجاج، فعرف أن عامراً الشعبي هو كَاتب الرسالة، يقول عامر يكمل قصة المحنة: ذات ليلة كنت أتعشى مع قتيبة بن مسلم إذ أنا برسول الحجاج معه كتاب جاء فيه: إذا نظرت في كتابي هذا، فإن صاحب كتابك عامر الشّعبيّ، فإن فاتَكَ، قطعتُ يدَكَ على رجلك وعَزلتُكَ.

قال عامر الشعبي: فالتفت قتيبة إليَّ، وقال: ما عرفتُكَ قَبْل الساعة، فاذهب حيث شئت من الأرض، فواللهِ لأحْلِفَنَّ له بكل يمين، فقلتُ: أيها الأمير إنَّ مثلي لا يَخْفى.

فقال قتيبة: أنت أعلم.. ثم بعثني إليه وقال لجنده: إذا وصلتم إلى مكان قريب من الحجاج يسمى خضراء واسط فقيِّدوه. ثم أدخِلُوه على الحجاج، فلما دنوت واقتربت من

---

(١) النص من سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٠٥.

واسط استقبلني ابنُ أبي مسلم فقال لي: يا أبا عمرو، إني لأضنُّ وأخاف عليك من القتل، إذا دخلت على الأمير فقل كذا وقل كذا، فلما أدخلت عليه ورآني قال: لا مرحباً ولا أهلاً، جئتني ولست من الشرف من قومك، ولا عريفاً ففعلت وفعلت، ثم خرجت عليّ.

وانطلق الحجاج يحدث بالتهديد والوعيد، وعامر الشعبي ساكت لا يتكلم.

فقال الحجاج: تكلم.

فقال عامر: أصلح الله الأمير، كل ما قلتَهُ حقّ، ولكنا قد اكتحلنا بعدك السهرُ لا ننام من الخوف فقد تملكنا الفزع منك، ولم نكن مع ذلك بَرَرةً أتقياء، ولا فجرة أقوياء، فهذا أوانُ حقَنْتَ لي دمي، واستقبلْتَ بي التوبة.

فقال الحجاج على الفور: لله درك، وعفا عنه وتركه بسبب هذه الكلمات.

هذه هزَّة عنيفة ومحنة اضطر فيها عامر الشعبي أن يختفي عن درسه وعلمه لكي يبعد الخوف عن نفسه ويتقي شر الظالم الذي لا يسمع النصح، فقد جاهد فعل الحجاج عندما بدأ يهمل الصلاة، ويجمع في وقت لا ضرورة للجمع فيه، وقد ذهب في هذا مذهباً واهياً، نبّه إليه الرسول ﷺ فلم يترك عامر الأمر لهوىً وإلى ظالم، وإنما وقف ودافع عن دينه، وأثبت أنه

فقيه ـ ولم يكـن راويـاً، فقد جعل العمل بما عَلِمَ وتعلَّمَ شعاره، فنجاه الله من بطش هذا الرجل، بأن ألهمه فصاحة لسان، وثبات جأش جعلت الحجاج يتراجع عن غيِّه وجبروته، فقد أوشك أن ينكّل به كما فعل مع أصحاب ابن الأشعث، وقد كان عامر ممَّن خرج معهم، واعترض على منهج الحجاج في الجمع وتأخير الصلاة، ويكون بذلك قد قال كلمته، ولم يكتم الشهادة.

ـ ٥ ـ

مع عبد الملك بن مروان ووالي الروم

لما صارت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان كتب رسالة إلى الحجاج واليه على العراق يطلب منه أن يبعث إليه رجلاً يصلح للدين وللدنيا، ويتخذه جليساً وأنيساً، فبعث إليـه الحجاج بعامر الشعبي رضي الله عنه، فجعله عبد الملك من المقرّبين إليه، وأخذ يلجأ إليه في معضلات الأمور، ويعتمد على رأيه في الأمور ذات الأهمية، حتى أصبح في حكم مستشارٍ خاص له، وكان من المهام الَّتي يكلف بها أن يبعث سفيراً بين عبد الملك والملوك.

وفي ذات يوم أرسله عبد الملك إلى ملك الروم، فلمّا وَفَدَ عليه، واستمع إليه سُحِرَ بذكائه ودُهِشَ من دهائه، وأعجبه فيه سعة اطّلاعه، وحُسْنِ بيانه فاستبقاه الملك عنده أياماً على غير

العادة مع سفراء البلاد الذين يفدون إليه، ثمّ يعودون فوراً.

أصاب الضجرُ عامراً من طول مقامه هناك وذهب إلى الملك يطلب الإذن بالعودة إلى دمشق حيث يكون عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين وأميرهم.

فقال له الملك: أَمِنْ أَهْلِ بيتِ المُلْكِ أَنْتَ؟

فقال عامر: لا، وإنما أنا رَجُلٌ من جملة المسلمين.

عند ذلك قال ملك الروم لعـامر الشعبي: إذا رجعت لصاحبك ـ عبد الملك بن مروان ـ وأبلغته جميع ما يريد معرفته، فادْفَعْ إليه هذه الرسالة.

فلما عاد عامر الشعبي إلى دمشق ذهب للقاء عبد الملك، وأفضى إليه بكل ما رآه وسمعه، وفي نهاية حـديثه مـع عبد الملك، وقبل أن يهمّ بالانصراف قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ ملك الرُّوم حَمَّلَني لك هذِهِ الرُّقْعَةَ ـ الرسالة ـ.

فأمسك عبد الملك بالرسالة وقرأها بعد أن استبقى عامراً لديه، فلمّا فرغ من قراءتها قال:
أعلمت ما في هذه الرسالة يا عامر؟.

فقال عامر: لا، يا أمير المؤمنين.

فقال عبد الملك: لقد كتـب إليَّ ملك الروم يقولُ: عجبتُ للعربِ كَيْفَ ملَّكَتْ عليها رجلاً غَيْرَ هذا الفتى؟!.

فقال الشعبي: إنما قال هذا لأنه لم يَرَكَ، ولو رآكَ يا أمير المؤمنين لَمَا قالَه.

فابتسم عبد الملك وقال: أفتدري يا عامر لم كَتَب إليَّ ملك الروم بهذا؟.

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال عبد الملك: إنما كتب إليَّ بذلك لأنه حسدني عليك، فأرادَ أن يغريني بقتلك والتخلص منك.

بلغ هذا الخبر ملك الروم، وما قاله عبد الملك لعامر فقال متعجباً: «لله أبوه، والله ما أردتُ غيرَ ذلِكَ».

هكذا كانت مكانة الشعبي عند خليفة المسلمين، صنعها بعلمه وتقواه، فأحسن العلم والحديث، وأتقن البلاغة وحسن البيان، تميز بحصافة الرأي وجُرأة في الحق، فحسده ملك الروم، وأراد بدهائه أن يوقع بينه وبين عبد الملك ولكن لم ينل حظه، ولم يبلغ مراده السيء.

- ٦ -
فكاهاتــه

كان الشعبي رجلاً مَرِحاً، صاحب ابتسامة مشرقة، وروح عذبة، لم يكن دائم الجد، وإنما بين الوقت والآخر يشرق بابتسامة كلمة تشيع جو البهجة والترويح في نفوس جلسائه ومريديه.

وها هو ذات يوم يقول لصاحبه: امض بنا نفرٌ من أصحاب الحـديث، هكذا أراد الشعبي أن يصنع تغييراً بسيطاً يبعده عن المجلس قليلاً حتى يروّح عن النفس من عناء العمل ومشقة الجلوس للرواية والحديث والعلم.

فانطلقا، وبينما هما في الطريق، مرَّ بهما شيخٌ، فقال له الشعبي: ما صنعتك؟

قال الرجل: رَفّاء - أي حائك يخيط الملابس -.

قال الشعبي: عندنا إناء مكسور ترفوه لنا؟

قال الشيخ: إن هيأت لي سُلوكاً من رَمْل، رَفَوْتُه[1].

فضحك الشعبي وصاحبه، وانصرفا.

ومرةً أخرى يأتيه رجل فيسأله: ما اسم امرأة إبليس؟.
فأجابه قائلاً: ذاك عُرْسٌ ما شهدته[2].

نعم، لقد كانت الإجابة على حدّ فكاهتها، ردّاً مناسباً لجدل عقيم كان يثيره بعض الفضوليين في أمور دينهم، قلّلَ الشعبي من أهميته بهذه المزحة الـبسيطة الـبليغة في حدِّ ذاتها.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ٣١١.
(٢) تاريخ ابن عساكر جـ ١٦ ص ٢٣٢ (عاصم إلى عايذ).

- ٧ -
وفاتـه

ظلَّ الشعبي محدِّثاً عظيماً، يجلس في مسجد الكوفة فلا يملُّ الناس مجلسه ولا ينتهي علمه عند حَدّ، وقد وُلي الشعبي القضاء في الكوفة، ولما ولّاه ابن هبيرة الفزاري الوالي في ذلك الوقت قال له: وليتك القضاء، وكلفتك أن تسامرنا في مجلسنا.

فقال عامر: لا أستطيع، فأفردني بأحدهما[١] - يقصد إما القضاء وإمَّا الجلوس للمسامرة -.

فوافقه ابن هبيرة الفزاري على رأيه.

وفي أواخر حياته راح يقول لأصحابه: كره الصالحون الأولون الإكثار من الحديث ولو استقبلت من أمري ما استدبرتُ ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث[٢].

وهكذا دعا التابعي الجليل عامر الشعبي إلى تحري الرواية وتقصِّيها تماماً، وليس كل ما يسمع يُروى، وإنّما رغب الشعبي رواية ما أجمع عليه أهل الحديث، حفاظاً على سُنةِ رسول الله ﷺ.

---

(١) المعرفة والتاريخ جـ ٢ ص ٥٩٣.
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣١٣.

ومات الشعبي في السنة الخامسة بعد المائة، عن سبعٍ وسبعين سنة، وقيل: تجاوز الثمانين عاماً.

رحم اللهُ الشعبي ؛ فقد كان تابعياً جليلاً، وعالماً فذّاً، شارك في إثراء الفقه الإسلامي، والحفاظ على سنة رسول الله ﷺ.



موضوعات الكتاب